العاصمة التاريخية

للدعوة السلفية

الدرعية

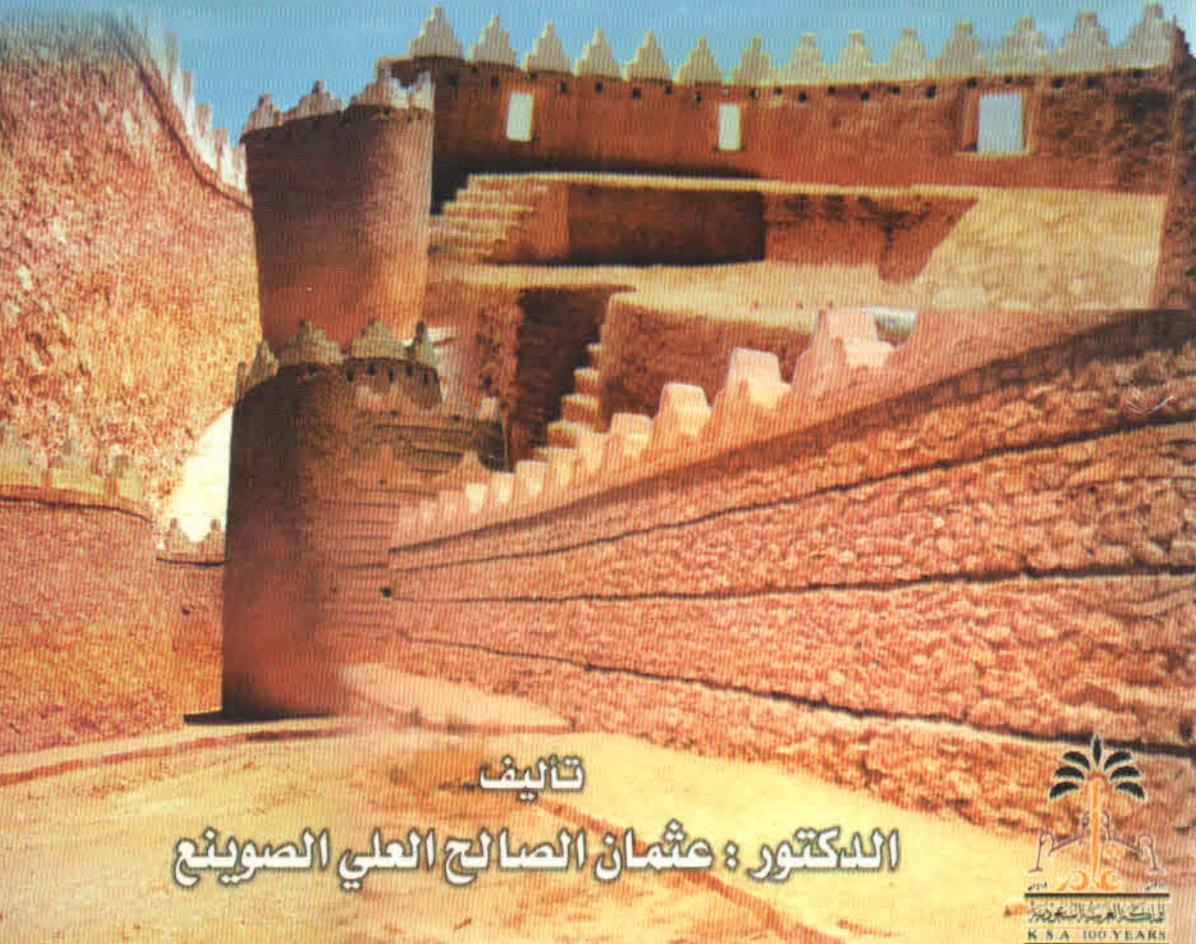

تأليف

الدكتور: عثمان الصالح العلي الصوينع

العاصمة التاريخية للدعوة السلفية الدرعية

تأليف

الدكتور/عثمان الصالح العلي الصوينع

الطبعة الأولى
١٤٢٠هـ/١٩٩٩م

صدر بمناسبة الذكرى المئوية لتأسيس المملكة العربية السعودية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، كما يحب ربنا، ويرضاه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، إله الأولين والآخرين، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وخاتم رسله ﷺ وعلى آله، وأصحابه، وسلَّم تسليماً كثيراً، أما بعد: فإن التاريخ ظرف يحوي المواقف البطولية، والأحداث الزمانية، والمكانية التي تثيرها الحركة الحيوية، ويفرزها النشاط البشري، إثر تعارض الأهداف، وتصادم الاتجاهات، والصراع بين المطامع والمطامح، وبعد فترة من الزمن تكون تلك الصراعات أخباراً مسجلة محفوظة تقرأها الأجيال، بعد الأجيال، مخلدة ذكر قادة الفكر، وعمالقة التاريخ، بما فيها من انتصارات، ومآسٍ، وتبقى تلك الأحداث آثاراً، وأحاديث بعد انقراض

الأبطال، وزوال أطراف النزاع، وتظل رهن التداول بين الأجيال القادمة للاعتبار والتأسي والموعظة[1] .

فالتاريخ عبرة، وعظة، ومتابعة، واقتداء، قال الله تعالى: ﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب﴾[2] ، وتكون تدبراً وتفكراً، وتثبيتاً للرسولﷺ وللمؤمنين ، ﴿وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك﴾[3] ، وقال: ﴿فاقصص القصص لعلهم يتفكرون﴾[4] ، فيقرأها الناس للعظة، والتفكر، فيرون فيها زوال النعم، ونزول النقم، وشتات الأمم، وتفرق الجماعات، كما يرون أن فرس البغي عثور، وأن على الباغي تدور

---

(1) تعريف التاريخ من الموسوعة ٤٨٠ .

(2) (سورة يوسف ، آية ١١١).

(3) (سورة هود ، آية ١٢٠).

(4) (سورة الأعراف ، آية ١٧٦).

الدوائر، وأن الظلم مرتعه وخيم، وأنه لا قوة إلا بالله، وأن القوي الجبار يهلك بطرفة عين، وبأتفه الأسباب، مهما كانت قوته، وعظمته، وأقرب مثال على ذلك من التاريخ، النمرود الذي شام من نفسه أنه يستطيع -من شدة قوته واغتراره بنفسه- محاربة الخالق في السماء، فأهلكه الله ببعوضة دخلت في خيشومه، وأكلت دماغه حتى هلك، وما أعجز الله، وقارون الذي يضرب بغناه المثل، لما طغى وتكبر، أهلكه الله بسبب سهل لا كلفة فيه، ولا مشقة، ولا أسلحة، ولا جيوش، بل لانت الأرض من تحت قدميه فغاص في قعرها، والناس ينظرون إليه، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة، وفرعون أغرقه الله في اليَمِّ وهو ينظر إلى خصمه موسى، وليس بينه وبين موسى وقومه سوى بضعة أمتار من الأرض، فما أغنى عنه ادعاء الألوهية، والعظمة الفارغة. والتاريخ

دروس للقادة والساسة، وكبار القوم ليسوسوا البشر، ويحكموا بالعدل، والاستعانة بأفكار الماضين الذين سادوا فنجحوا، وقادوا المعارك فانتصروا، حتى أصبحوا زعماء يسير الناس وراءهم مختارين غير مقهورين ولا مجبرين، ومتابعة خطوات النجاح التي سار عليها أولئك الناجحون في رئاستهم، والمتفوقون في حياتهم، حتى أصبحت سير الأبطال دروساً صافية يأخذ الخلف ما صفا من أفكار السابقين، وما أصاب من آرائهم في الحياة، فيضمها الخلف إلى حصيلة أفكارهم، ثم يدركوا أنهم قد أصبحوا يعيشون بآراء أولئك الأبطال، أو أفكارهم، ولهذا صار التاريخ والسير دروساً للأجيال القادمة، فدارس التاريخ واسع الأفق، بعيد المدى، يعيش مع الماضين، وهو بين أبناء الحاضر، فقد كسب عمراً آخر، إضافة إلى عمره، يعاصر بالقراءة

من سبقة بأجيال، ومن عاش معه، وهذه ميزة يتمتع بها المؤرخ، أو المتردد في قراءة التاريخ، وقد لا يدرك هذا المعنى إلا متخصص بمادة التاريخ والتاريخ مليء بالأحداث والمآسي الإنسانية المعقدة، والعبر التي لا ينضب معينها، وحاضر الأمم مبني على ماضيها، والأمة التي تنسى ماضيها يكون حاضرها هشاً هزيلاً، يسرع إليها الهرم، ويقعدها العجز، فتحسب بعد فترة وجيزة وعمر قصير من الأمم البائدة والاشتغال بالتاريخ خدمة لهذا الجانب الهام من جوانب العلم، وخدمة للأجيال السابقة واللاحقة، وخدمة للوطن -ميدان هذه الأحداث.

والمؤرخ المنصف هو الذي يتحرى الدقة، ولا يكتب إلا ما يغلب على ظنه أنه الصواب أو الأقرب إلى الصواب، وأن يصحب عمله صلاح النية، وسلامة القصد والطوية. وكانت الذكرى

المئوية لتأسيس المملكة العربية السعودية من أروع المناسبات التي أتاحت الفرصة لمراجعة تاريخنا القريب الذي يكاد يجهله الخاص والعام، وهو جدير بالقراءة المتأنية الجادة، وتاريخ وسط الجزيرة العربية يكاد يكون حلقة مفقودة بعد القرون الأربعة الأولى بعد البعثة النبوية، ثم عاد التاريخ إلى التدوين ابتداء من آخر القرن التاسع الهجري ٨٥٠هـ، ولكنه تدوين متأخر عن وقت وقوع تلك الحوادث، فتكون تلك المعلومات التاريخية ظنية أقرب منها إلى الصحة، والحادثة التي لا تدون في وقتها تكون غير دقيقة، لأن التداول بدون تدوين له محاذير معروفة عند المؤرخين، وعلماء الأسانيد.

وينحصر تاريخ نجد الذي دُوِّنَ في وقته بما جاء بعد دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، والإمام محمد بن سعود، بداية من القرن الحادي

عشر الهجري، وقد اهتم المؤرخون بهذه الفترة اهتماماً بالغاً، حتى إنهم لم يتركوا شاردة، ولا واردة إلا كان لها نصيب من تدوينهم.

ولما عزمت على المشاركة في مناسبة الذكرى المئوية لتأسيس المملكة العربية السعودية التي أسسها الملك الراحل عبدالعزيز تبين لي أن من المستحسن أن تكون بدايتي من الأساس الأول، لأن كل بناء يقوم على الأساس، ومعلوم أن الملك عبدالعزيز قد أسس المملكة على ما بناه أسلافه من قبله ، فقد بنى الدور الأول محمد بن سعود، وأبناؤه، وأحفاده بالتعاون مع الشيخ محمد ابن عبدالوهاب رحمه الله، وأبناؤه، وأحفاده.

كما بنى الدور الثاني أحفاد المؤسس الأول محمد بن سعود - الشهيد تركي بن عبد الله وابنه فيصل ومن جاء بعدهم من الأسرة.

وأما الدور الثالث فقد شيده الملك المجاهد الكبير عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل بن تركي رحمه الله، ثم سار أبناؤه من بعده على نهجه وخطاه، وقد قسمت هذا الجهد إلى ثلاثة أجزاء، الجزء الأول هو ما أُقَدِّمُ له الآن، وهو يؤرخ للفترة الواقعة بين ١١٣٩هـ إلى ١٢٣٣هـ تاريخ تدمير إبراهيم باشا لعاصمة الدعوة الدرعية، ونهاية الدور الأول من حكم آل سعود.

وأما الجزء الثاني فهو يتحدث عن الفترة من ١٢٣٤ حتى عام ١٣١٨هـ وقعة الصريف بين مبارك بن صباح، وعبد العزيز بن متعب بن رشيد، وتدخل فيها عشر سنوات الفترة التي كان الحكم في نجد لابن رشيد دون منازع، وأما الجزء الثالث فهو المقصود، وهو ما يتحدث عن الفترة من ١٣١٩هـ فتح الرياض إلى وفاة المؤسس والموحد الملك عبد العزيز ١٣٧٣هـ، وقد صدر

بعنوان "مع الملك الموحد في مسيرة التوحيد والبناء".

أما هذا القسم الذي جاء عنوانه عاصمة الدعوة -الدرعية- تدمرها الفئة الباغية، الذي هو الآن بين يديك، فهو عبارة عن قسمين: القسم الأول نشر الدعوة، والجهاد في سبيل ذلك، وتوحيد أجزاء الوطن، وجمع كلمة المسلمين على الحق والدين الصحيح، وإزالة المنكرات والشبهات، والبدع والخرافات، وتحكيم الشريعة المحمدية، وتجديد ما اندثر من تعاليم الدين الحنيف، وقد جاء ما كتبته على شَكْلِ قَصَصٍ، ولم التزم بالتفصيلات الدقيقة والتحليل التاريخي، وتركت الجزئيات لمن يكتب تاريخاً يدرس، أما القسم الثاني فإنه يبدأ من بداية الاتجاه المعاكس وهي حملة "محمد علي" والسعي إلى تدمير ما بناه

الإمامـان المجـاهدان ومـا شـيداه بالـهمـة العاليـة والطموح السامي والقصد الشريف.

أرجو أن أكون قد وفيت، وأن يجد القـارئ مـا يشـبع نـهمـه، ويـروي غليلـه، وأن أكـون عنـد حسن ظن القارئ، وأن يأخذ الحسـن وأن يتجـاوز عن التقصير، فالإنسان مهما بلغ يظل مدى حياتـه غير كامل، والكمال لله وحده، ﴿وما توفيقي إلا بـا لله عليه توكلت وإليه أنيب﴾[1].

وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم ...

المؤلف

د/ عثمان الصالح الصوينع

٥/١٠/١٤١٩هـ

٢٢/١/١٩٩٩م

---

[1] (جزء من الآية ٨٨ هود).

الحياة الاجتماعية والسياسية
في شبه الجزيرة العربية

يروي لنا التاريخ أن جزيرة العرب كانت هي مهد الحضارات الإنسانية، وأنها من أقدم البلاد التي استعمرها الإنسان الأول على الإطلاق، وأسس فيها على مر العصور والأزمان حضارات ثابتة، وممالك شاسعة وشيد قلاعاً راسية، وحصوناً شامخة، يرجع ذلك إلى أعماق ما قبل التاريخ.

وعلى اختلاف في الروايات عن طبيعة أرضها، وخصوبة تربتها، واعتدال جوها، ووفرة مياهها آنذاك، ولكن الثابت أن المجتمع في الجزيرة العربية من أعرق المجتمعات، وأقدمها في العالم، ويُظن أنها الموطن الأصلي للساميين الأوائل جميعاً، وفيها نشأت الحضارة البشرية أول مرة في تاريخ الإنسان القديم، ومنها انتشر البشر في أنحاء المعمورة بسبب الظروف الطبيعية، والأنواء الجوية، والتيارات السياسية المتقلبة التي

تظلهم، وتحيط بهم على مر العصور، وكانت تلك الموجات المتنقلة تضرب في بطن الجزيرة العربية، وفي تخومها، وتجوب أطرافها حتى تجد المكان الملائم فتستقر فيه ردحاً من الزمن، ويؤيد ذلك الممالك، والدول التي شيدوها في اليمن، وأطراف الشام، ووادي الرافدين، وهناك من الآثار ما يدل على وجود حضارات سادت، ثم بادت، وقد قص القرآن الكريم بعضاً من تلك الحضارات التي دُمِرت ، ومع ذلك فإن البداوة ظلت تغلب على كثير منهم، وكان لعوامل التدمير بالكوارث الطبيعية الأثر الفعال في ذلك، إذا استقروا في مكان، وعمروا المدن، وطاب لهم العيش، كفروا النعمة فأحبط الله عملهم، ودمر مجهودهم، فخسروا إنجازهم، ومكاسبهم، ثم تعود الفلول الناجية إلى طبيعتها الأصلية، الرعي، وملاحاة الجفاف، وتتبع الغيث، فترجع البداوة مرة

أخرى، وتضطر تلك الفلول الناجية إلى الالتفاف تحت راية القبيلة الواحدة حماية للنفس، وحفاظاً على لقمة العيش.

وتعد شبه الجزيرة العربية من أفقر بلاد العالم، وكانت تعيش أحلك الظروف إذ هي منطقة صحراوية جافة شحيحة الماء والزرع، والموارد المالية التي تعد العنصر الأساسي، والعمود الفقري للحياة، تكاد تكون مفقودة، وكان السكان يعيشون على ما تنتجه الأرض من زراعة بسيطة، وحراثة بدائية، وصناعات يدوية خفيفة لا تكاد تسد حاجة المجتمع، فالزراعة فيها تعتمد على الآبار الجوفية العميقة التي يستخرج ماؤها يدوياً، أو بواسطة الحيوانات، وتنحصر جهود الفلاح في زراعة النخيل، والحبوب بأنواعها، والخضار، والفواكه في بعض المناطق، وتربية الماشية، والاستفادة من لبنها، ولحمها، وجهدها

في المزارع، وغرس الأشجار الكبيرة، وقطع أخشابها، ويعتني الفلاح بالنخيل عناية فائقة، ويفضل ثمرها على سائر الثمار، وتجود التمور في منطقة الرياض، ومنطقة القصيم، والأحساء، والمدينة المنورة، وبيشة، وتقل في الحجاز "تهامة"، والمناطق الشمالية، والجنوبية، وتعتمد البادية على الرعي، وتربية الماشية، فإذا هطلت الأمطار نمت الماشية، وتكاثرت، وعاش سكان البادية في نوع من كفاف العيش، وإذا أجدبت الأرض، وعم الجفاف هلكت الماشية، وأصبح سكان البادية الرحل عالة على الفلاحين في القرى والمدن، ويمارس بعض السكان الصناعات الخفيفة، والحرف اليدوية في نجد، والمدن الداخلية، ويشتغل سكان المدن الساحلية بصيد السمك، واستخراج اللؤلؤ، والمرجان، والمحار، والأصداف، وصناعة السفن، والقوارب،

وأشـرعتها، ويقـوم محـترفو التجـارة فـي شـبه الجزيرة العربية بتصدير التمر إلى دول الخليـج، والإبـل إلـى بـلاد الشـام، ومصـر، كمـا يشـتري الحجاج من مكة قطعاً من أسـتار الكعبـة المشـرفة والسـبح، كنـوع مـن الهدايـا، ويعتمـد أهـالي مكـة، والمدينة، وما حاورهما على نفقـات الحجـاج فـي المواسم.

ومن هذا يتبين أن البلاد تعيش فقـراً شـديداً في ذلك الوقت، وقد تفشى الجهل والمرض وهمـا قرينا الفقر، ونشط أهل الضلال وأصحاب البـدع، وكان لتمزق السلطة السياسية الأثر الفعال في قيام الحروب المتوالية، والغارات المتتالية، والفتن التي أثرت سلبياً على حياة الناس، وشـغلتهم عـن قـوت يومهم وليلتهم، وشلت حركتهم عن تطوير أنفسهم، وتعليـم أبنـائهم، فكـانت تلـك الحـروب مـن أشـد المشاغل التي أدت إلى تخلفهم.

وقد استفاض أن قبائل الجزيرة العربيـة فـي أكثر الأزمنـة ليـس لهـم مدنيـة اجتماعيـة، ولا حكومات سياسية، ولا أنظمة عسكرية، بـل يسـود مجتمـع القبيلـة السـكن فـي الخيـام، والظعـن، والتجوال، الحكم لرؤساء القبائل يملكون بـالإرث، ويحكمون بالعرف، والمجتمع خارج القبيلة مفكك متنـافر لا صلـة بيـن قبيلـة وقبيلـة، ولا ترابـط حضارياً بينهم، والحروب قائمة لا تضع أوزارها، قد توزعت جهودهم بين الجدال والقتال.

ومن ذلك التاريخ، وجزيرة العـرب فـي مد وجزر تتحضر في عصر، ثم تتخلف في عصور، لا تنقطـع تلك التبـدلات، والمتغيرات علـى مـدى الأزمـان، والدهـور، بسـبب الأحـوال الجويـة الصعبـة، والكـوارث الطبيعيـة المتتاليـة، واتسـاع رقعة الصحارى، واضطراب حبل الأمن، وقسـوة الحياة وتقلباتها المفاجئة.

ومع ذلك فقد بقي في الصحراء من مختلف القبائل من قنع بالفقر منهم، والقلة والعناء، ثم اختاروا منها الأماكن الأكثر اعتدالاً، وخصباً، وأسسوا مدناً وقرى، وظل حولهم من ألف الرعي، والترحال، وما زالوا بين منازلهم الأصلية يتنقلون، ينفرون من الغريب، ويرفضون الأجنبي، ولذلك فإن غالب السكان ينتمون إلى قبائل متعددة من أشهرها: "عنزة" قبيلة عدنانية من كبار القبائل، وأكثرها عدداً وعدة، ويعود أصلهم إلى بكر بن وائل بن ربيعة، ومنهم آل سعود، وآل الصباح حكام الكويت، وآل خليفة حكام البحرين، و"تميم" القبيلة المضرية العدنانية العظيمة التي تغني شهرتها عن الحديث عنها، انتشرت بطونها، وأسرها المتحضرة في مختلف أقاليم نجد، وقد قيل تميم نصف العرب، ومن أشهر فروعهم الوهبة، ومنهم الشيخ المجدد محمد بن عبدالوهاب

رحمه الله، وآل ثاني حكام قطر، و"عتيبة" من أكثر القبائل النجدية عدداً، وأوسعها بلاداً تضم فروعاً كثيرة أكثرها عدنانية من هوازن، وفيها من قحطان، و"مطير" قبيلة ذات فروع، وبطون متعددة، وهي من بقايا غطفان المضرية، و"قبيلة حرب" قبيلة قحطانية من خولان من قضاعة كثيرة الفروع، و"قبيلة سبيع" من أشهر القبائل النجدية، وأكثر بطونها من بني عامر من هوازن من قيس عيلان من مضر، و"بنو خالد" من أشهر القبائل في الجزيرة العربية، عدنانية الأصل مازجها أفخاذ كثيرة من قبائل أخرى بطريق الحلف، وبالمصاهرة، وهي من القبائل التي اشتهرت في الجزيرة العربية بعد الإسلام مثلها مثل قبيلتي مطير، وعتيبة، وغيرهما، و"قبيلة شمر" وهي قبيلة صريحة النسب، وكانت في الأصل فرعاً صغيراً من طيء، ثم اجتمع تحت

هذا الاسم كثير من الفروع من طيء وغيرها، و"قبيلة العجمان" وهي قبيلة قحطانية من يام لها تاريخ طويل، ومن أشهر المتحضر منهم آل عساف أمراء الرس، و"الأشراف" هاشميون، وبني هاشم من قريش، وقريش من العرب المستعربة من عدنان، و"قبيلة الدواسر" قبيلة كبيرة لا يحصى عددها ذات أصول صحيحة مؤلفة من فروع متعددة لا يجمعها جد واحد تتصل بأصلي العرب قحطان، وعدنان، فمنهم من يرجع إلى الازد من قحطان، ومنهم من يرجع إلى تغلب من بكر وائل من عدنان.

وهناك قبائل أخرى كثيرة العدد لا يتسع المجال لذكرها ، كما يوجد في المجتمع في الجزيرة العربية فئات عديدة فقدت ارتباطها بالقبيلة لظروف معينة، وتمثل هذه الفئات في بعض المناطق غالبية السكان، ويقطن معظمهم في

المـدن والقـرى، ولا يـألفون الباديـة، وأكـثرهم هاجروا من مجتمعات، وحضـارات مختلفـة ظلـوا يمارسون عاداتهم، وتقاليدهم، ولكن الحياة اليوميـة تجري تبعاً لعادات السكان الأصليين، وأعرافهم[١].

ومما تقدم يتضح أن الوضع السياسي لا بـد أن يتبع الوضع الاجتماعي الذي أصبح في وضـع يشبه الاستقلال الذاتي عن الدولـة العثمانيـة التـي تبسـط سـلطتها الاسـمية علـى البـلاد العربيـة، وخاصة المناطق الداخلية الموغلة فـي الصحـراء، وأن الدولـة المريضـة تكتفـي مـن تابعيهـا بالدعـاء للسلطان على المنابر فـي خطـب الجمـع والأعيـاد في المدن والقرى، وقد تركت الحبل على الغـارب للزعامـات الإقليميـة، والعشـائرية، القـوي يسـيطر

---

[١] راجع عن هذا حركات التجديد في الشعر السعودي المعاصر، د.عثمان الصوينع، ص٤٤-٧٢.

علـى الضعيف، وكـل أهـل بلـد أو باديـة يهتمـون بأنفسهم مستقلين كما يشاؤون.

فكـانت البـلاد قبـل خطـة اتفـاق "المحمديـن" تضـرب الفوضـى السياســية أطبانهـا علــى تلـك الأرض، فكل بلد صغير فيه سلطة محليـة مستقلة عن الأخرى ما استطاعت، يتنازعون بينهـم علـى أتفه الأسباب، وتقوم الحروب، والمعارك من أجـل ناقة، أو جمل، أو حـدود بيـن قريـة وقريـة، ففيمـا يعـرف الآن بمنطقـة الريـاض الإداريـة أكثـر مـن عشرين إمارة مستقلة ناهيك عن المناطق الأخـرى مثـل القصيـم، والأحســاء، وحــائل، والحجــاز، والجنوب، والشـمال، هـذا بالنسبة للحـاضرة، أمـا البوادي فحدث عن تمزقها ولا حـرج، فكـل قبيلـة تخضـع لعدد من الزعماء، والشيوخ، وتعيش علــى المراعي، وتنتقل من منطقة إلى أخرى، فينشأ مـع ذلك الخلاف المستعصي، ويظل النزاع قائماً بينهم

على المراعي، ومناطق النفود القبلية، فكانت قرى ممزقة القوى، وقبائل متفرقة الكلمة، دفاعاتها هشة، وحياتها بائسة، ليس لديهم ما يدافعون به عن أنفسهم سوى شجاعة الفرد، وعزيمته، وإقدامه، ولكنهم ضعفاء كمجموعة لتفرقهم، واختلافهم، واعتزازهم، بالإقليمية، والعنصرية القبلية، فكانت لهم حروب تشبه حروب الحارات داخل المدن، وكان من السلبيات التي فرضها عليهم الواقع انتماء كل بلد، أو قرية إلى قبيلة من القبائل المتعددة، فهذه القرية أو المدينة يسكنها "تميميون"، وأخرى "خالديون"، وثالثة "سبعان"، وينمي الجهل هذا الواقع القبلي، فإذا نشأ خلاف في بلد استنجد أهله بأبناء القبيلة في البلد الآخر، أو في البادية، فتتشابك الخصوم، ويطول النزاع بينهم، وهذه حياتهم الدائمة المستمرة لا يزدادون فيها أعمالاً، ولا مالاً، ولا استقراراً، قد أضاع

غالبيتهم الدين والدنيا، فلا دنيا كسبوها، ولا أعمالاً للآخرة يرجون ثوابها، وعلى هذا فإن الحياة بهذه الصفة لا قيمة لها، ولا معنى، وإنها مجرد شقاء، وعناء، وعذاب، وأن تغيير مجرى حياة المجتمع الذي تسيطر عليه النزاعات، والبطالة إلى مجتمع متفاهم نشيط مكتسب، ومتعلم فعَّال، أمر يقتضيه الواجب الديني، والوطني، والقومي، وأن من أهم أركان إصلاح المجتمع، والجماعة جمع أزِمَّة السلطة المتعددة في زمام واحد بيد إمام واحد، وتحت راية واحدة، حتى يسهل إصلاحهم، وصلاحهم، وتعليمهم، وتطويرهم، وإلزام النافر من السلطة بالانضباط، والرضوخ لها، وإلزام المتآبي بقواعد الدين، والسلوك المستقيم، والبحث عن العيش الكريم، وقد أدرك هذا الشيخ محمد بن عبد الوهاب بثاقب بصيرته، وعلم أن نشر الدعوة في هذا المجتمع

الممزق الجاهل يحتاج إلى وحدة وطنية، وسلطة قوية تعينه، وتفتح أمامه الطريق إلى البلدان الأخرى، وتحمي ظهره من انتكاسة الأعداء الذين يحاربون دعوته، ثم هدى الله الإمام محمد بن سعود، وأنار بصيرته لهذه الدعوة، فآوى الشيخ، وناصره، وشد عضده، ورفعا راية الجهاد، ولما أحس الزعماء بما يهدف إليه الإمامان الكريمان محمد بن سعود، ومحمد بن عبد الوهاب من توحيد البلاد، والقضاء على الزعامات المتفرقة فزعوا وخافوا من هذه الدعوة شحاً بالسلطة، وطمعاً ببقاء الرئاسة بأيديهم، و ناصبوهما العداء، مما سيأتي تفصيله في الصفحات الآتية.

مـــدخـــل:

يولد الإنسان وتولد معه غريزة حب التملك، ويكبر وتكبر معه هذه الغريزة، وقد لا يختلف إنسان عن الآخر في هذه الصفة، وأما غريزة حب السيطرة فانها موجودة عند كل مخلوق ذي روح، ولكنها تختلف من واحد لآخر حسب قوته الجسمية وقدرته العقلية، فإن قوي البنية لا يزال يفكر في السيطرة على أقرانه الذين هم أقل منه في القوى الجسمية، والقدرات العقلية، وهذه ظاهرة موجودة عند كل حي، حتى الحيوانات في الغابة، فإن الأسد يظل سيد الغابة، لقوته، وقدرته على فرض وجوده على من حوله، وكذلك الإنسان الذي يشوم في نفسه قوة تحميه من العدو الذي ينازعه الزعامة، وقد لا تكفي القوة وحدها إذ لا بد من العقل المدبر، حتى لا يقع فريسة لمجموعة من الأعداء ، فالعقل قائد رشيد يستطيع إنقاذ صاحبه من المآزق التي يدبرها له المنافسون

الذين لا يستطيعون مجابهة قوته، ولذلك نجد في كل مجتمع سواء كان دائماً أو مؤقتاً مَنْ يسيطر على هذه المجموعة، ونراهم ينضوون تحت مظلته، ويخضعون لأوامره، لأن لديه القدرة على فرض إرادته وبسط سيطرته عليهم، حتى صاروا طوع بنانه، وساروا في دائرة نفوذه، وبسبب هذه الغرائز الكامنة في النفوس، المغروسة في الطباع، وجد هذا الصراع بين الأفراد، والجماعات، وبسبب وجود هذا الصراع أكرم الله بني آدم فشرع لهم الخلافة، والسلطان لحل الخلاف الناشب، وفض المنازعات، وإقامة العدل بين الناس، وقمع الباغي، ودحر الظالم المعتدي.

وكل تجمع سكاني مر بهذه المرحلة عبر أطوار التاريخ، وكل جماعة يجمعها مكان واحد تحتاج إلى سلطة تتولى قيادتها، وزعيم يؤلف بينها، ويتكلم بلسانها، ويجمعها للدفاع عن كيانها،

والذود عن مكانها، فيردع بالسلطة المعتدي، وينصف بالقوة والحكمة المظلوم، وكانت طبيعة سكان شبه الجزيرة العربية تتبع مناخها الصحراوي المتقلب، وطقسها القاري، فطبيعتهم شبيهة بطبيعة جوِّها ، غير مستقرة على حال، ينتقل مع مصالحها الرعوية التي تتبع الربيع المزدهر إذا نزل المطر، ولهذا السبب صارت طباعهم تختلف عن طباع أهل المدن المستقرة، فصاروا جماعات متفرقة، وأكثر أوقاتهم متنازعة متصارعة، إما على المرعى والمكان، أو رغبة في النهب والسلب، واختلاف الرأي، والغارات والثارات التي لا تنتهي، فصار كل زعيم مجموعة ينازل برجاله زعيم المجموعة الأخرى، وأحياناً يتقاربون ويتحدون ضد زعيم قبيلة أخرى.. وقد تحضر بعض المجموعات، واتخذوا لهم قرى واستقروا بها، وأقاموا المباني الدائمة،

والمساكن الثابتة، وتحول الكثير منهم إلى الزراعة، وامتهان بعض الحرف، فاحتاجوا إلى النظم الاجتماعية أكثر من الذين مهنتهم الرعي، والظعن من جوّ إلى جوّ ومن قطين إلى قطين، لا تربط بينهم روابط إقليمية، بل رفقة كرفقة المسافرين، وهواة السياحة والرحلات.

فكانت نجد من أهم المناطق في شبه الجزيرة العربية، وكانت واحاتها من أخصب الواحات الزراعية، وكانت بلدة الدرعية من أهم ما نحن بصدد الحديث عنه، وقد اكتسبت شهرة وأهمية خاصة، ودخلت التاريخ من أوسع أبوابه، بسبب وجود العائلتين الكريمتين المباركتين منذ توقيع معاهدة الفتح التي أورقت، ثم ازهرت وأثمرت، فجنى ثمارَها شعب شبه الجزيرة، بل الأمة الاسلامية المحمدية بأكملها، وظلت المنطلق الآمن الصادق لرسالة الإسلام بعد ما طبقت

مبادئ الشريعة، وقواعدها نصاً وروحاً، واتخذت تعاليم الإسلام منهجاً، وعقيدة في حياتها العامة والخاصة، والتزمت بنشر هذا الدين في أنحاء العالم، وظلت ملتزمة بهذا العهد وفية بالتزامها مدى وجودها على خارطة العالم.

ويظل التاريخ في كل حين سجلاً خالداً يحفظ الكنوز والودائع الزمانية الحادثة أثناء دوران الأيام والليالي من الأفعال الجسام التي يسجلها صانعو التاريخ لأمتهم، وأوطانهم ودينهم، مما يتمخض عن النشاط البشري الدائب، من انتصارات، وانتكاسات، ولا تخلو الأيام والليالي خلال دورانها من الكوارث الطبيعية والحوادث، وقد يظهر ما حدث ولو بعد حين، لأن التاريخ لا يرحم.

ومن أخصب البقاع في الحوادث، والمنازعات والخلافات هي شبه الجزيرة العربية،

هذه الصحراء الواسعة التي تعد المعيشة فيها غاية في الصعوبة لتباعد البلدان، وتكاثر الرمال، وحرارة الجو، وتعدد المنازعات بين الزعماء، وأسباب هذه المنازعات المتعددة مألوفة لدى من لديه إلمام بتاريخ الأمم والشعوب، وطبائع إنسان هذه الجزيرة، ومن تلك الأسباب البعد عن مقر الخلافة في العراق والشام وانشغال الخلفاء السابقين بما هو عندهم أهم منها، وقد أدى هذا الانشغال إلى انفصال حكّام الولايات واستقلالهم بالسلطة، والتنافس فيما بينهم عليها، ومن ذلك أن طبيعة أهلها الترحال، والانتقال من مكان إلى مكان، وصعوبة المواصلات، ومتابعة نشاط السكان، وإقامة الحدود بينهم، وتعذر مطاردة الفارين أحياناً، وقطاع الطرق، وقلة ذات اليد، ونقص الموارد البشرية، والمواد الغذائية، وشدة التصحر، والقحط والجفاف، وانتشار المجاعة،

والأوبئة، والأمراض المتنوعة بين تلك القبائل التي ترتاد تلك السهول.

ولعل أكثر فترة اعتنى بها المؤرخون، ورصدوا حوادثها، هي الفترة التي تبدأ من ٨٥٠هـ، التي ظهر فيها آل سعود على الساحة السياسية، وخاصة بعد ظهور الإمام محمد بن سعود، واتفاقه مع الشيخ محمد بن عبد الوهاب سنة ١١٥٩هـ، حتى يومنا هذا، أي ما يقرب من ٥٧٠ سنة، وهي الفترة التي كان لهم فيها إمارة، ثم دولة، وحكومة بمفهومها الحقيقي المعاصر، هذه الأسرة الكريمة التي يسر الله لها سبل الخير، وهيأ لها أن تكون راعية أمن هذه الجزيرة، والسبب في توحيد أجزائها، ونشر الدين الحنيف في أرجائها، ومنها إلى أنحاء العالم أجمع، وصقل هذا الدين وتخليصه من الشوائب والعوالق البدعية، والشركية، والخرافية التي شوهت

محاسنه، وطمست معالمه، بعد أن غيرت ملامحه النبوية الطوائف الدينية، وأهل الطرق، والمكاشفات، والمعتقدات الفاسدة.

آل سعــــود :

ينسب آل سعود إلى أحد فروع "وائل" من عدنان من قبيلة "عنزة "، وهو المشهور، ومن قال إنهم من بني حنيفة فهم حنفيون ربعيون عدنانيون، يؤيده ما قاله الأمير عبد الله بن عبدالرحمن بن فيصل بن تركي آل سعود[1] "أخو الملك عبد العزيز رحمه الله"، حيث نسب إليه أنه قال: "نحن من بني حنيفة" وبنو حنيفة يرجعون إلى وائل، وقد انقسمت سلالة مانع المريدي -جد آل سعود- إلى آل مقرن وآل وطبان عند مرخان بن إبراهيم، ثم تفرع بعد ذلك من آل مقرن عند سعود بن محمد " آل ثنيان" و"آل مشاري" و"آل فرحان" واختصت ذرية محمد بن سعود "المؤسس الأول" بـ "آل سعود"، وكان يجمع كل هذه الفروع إسم آل مقرن الذي يعرفون به حتى آخر الدور

---

(1) في قلب جزيرة العرب - ص١٧٤ ، فؤاد حمزة ، عنوان المجد في تاريخ نجد ١/١٥ عثمان بن بشر.

الأول عندما اشتهرت سلالة محمد بن سعود "المؤسس" بآل سعود واختصت به[1] .

ولم تصل إلى أيدي الباحثين، وثقات النسابين المراجع الموثوقة التي تتحدث عن تاريخ الأسرة قبل جدهم مانع المريدي، ومن المعروف أن الأسر الكبيرة تبدأ بأحد أبنائها الموهوبين المبدعين، ثم يكثر أفرادها وفروعها، وكانت بداية إمارة آل سعود متواضعة حين بدأت بمانع ولا تعني إمارته بالدرعية آنذاك المفهوم الحقيقي للإمارة في عصرنا الحاضر، إذ لا يوجد له نشاط فعلي خارج نطاق حدوده القريبة.

وقد مر على بداية ظهور هذه الأسرة في نجد ما يقرب من خمسمائة وسبعين عاماً منذ قدوم جد الأسرة مانع على رئيس دروع حجر اليمامة[2]،

---

(١) د. منير العجلاني ص٦٠ - الإمام تركي بن عبدا لله.

(٢) المكان الذي قامت على أنقاضه مدينة الرياض الحالية.

وذلك عام ٨٥٠هـ وكان مانع هذا من عشيرة دروع اليمامة، فاقطع مانعاً المكان المسمى "المليبيد وغصيبة "، وهذا المكان داخل في المساحة التي يضع الدروع عليها أيديهم، ويغطيها نفوذهم، فأقام مانع بها هو وأسرته الذين حضروا معه من جهات القطيف -مساكن عشيرته الدروع- فعمرها، وتوارثها أبناؤه من بعده، وسميت "بالدرعية" اقتباساً من اسم بلادهم القديمة التي نزحوا منها المسماة "بالدرعية"، أو نسبة إلى ابن درع الذي أقطعها لهم تقديراً له، وتخليداً لذكره، والأسماء أحياناً لا تقبل التعليل.

وقد تعاقب على رئاسة هذه الأسرة ما يزيد على ستة عشر أميراً قبل الدور الأول خلال

فترة مائتين وتسعين عاماً من ٨٥٠ هـ حتى ١١٣٩هـ [1].

وعلى الرغم من ضعف نفوذ الإمارة ، فقد قام نزاع على الإمارة بين أفراد الأسرة، استغله شخص يدعى سلطان بن حمد القبس عام ١١٠٧هـ، فاغتصب الإمارة منهم، وبقي الحكام الأصليون ثلاثة عشر عاماً على هامش السلطة،

[1] الزركلي ، في كتابه الوجيز ، ص٩-١٠ ، يذكر أن الأمراء الذين تولوا الإمارة من آل سعود - مانع ، ثم ابنه ربيعة ، ثم موسى بن ربيعة بعده تولى إبراهيم بن موسى ، ثم ابنه مرخان بن إبراهيم ، ثم يذكر الزركلي أن ابني مرخان ربيعة ومقرن توليا الأمر مشتركين ، ثم جاء بعدهما للإمارة وطبان بن ربيعة ومرخان بن مقرن ، ثم ناصر بن محمد بن وطبان بعده محمد بن مقرن، ثم إبراهيم بن وطبان ، ثم إدريس بن وطبان إلى أن كانت أيام موسى بن ربيعة بن وطبان ١١٢١هـ الذي خلعه أهل الدرعية سنة ١١٣٢هـ ، فتولى سعود الأول بن محمد بن مقرن وبعد وفاته سنة ١١٣٧هـ خلفه زيد بن مرخان، ولكنه قتل سنة ١١٣٩هـ ، ثم تولى بعده محمد بن سعود بن مقرن عام ١١٣٩هـ ، انظر عنوان المجد ابن بشر ، ص١٥٩ .

وبعد ذلك استردوها بالقوة من المغتصب، وتولى الإمارة موسى بن ربيعة بن وطبان عام ١١٢١هـ، ثم خلعه أهل الدرعية، وتولى من بعده سعود بن محمد بن مقرن حتى وفاته عام ١١٣٧هـ تولى من بعده زيد بن مرخان، ولكن لم يلبث أن غدر به ابن معمر أمير العيينة وقتله عام ١١٣٩هـ، ثم تولى الإمارة من بعده محمد بن سعود المؤسس الأول للدولة السعودية[١] .

---

[١] سلطان القبس، يقال إنه من بني خالد ، وانظر تاريخ ابن عيسى ، ص٣٦-٤٥ .

أسرة آل سعود اعتباراً من ٨٥٠هـ حتى ١٣١٩هـ

		المريدي مانع		
		ربيعة		
		موسى		
		إبراهيم		
	سيف[٣]	مرخان	عبد الله[٢]	عبد الرحمن[١]
	ربيعة[٤]	مقرن		
مرخان	عياف	محمد		عبد الله
	ناصر	سعود	مقرن	
فرحان	مشاري	محمد		ثنيان
علي	فيصل	عبد الله	سعود	عبد العزيز[٥]
		تركي	زيد	
		فيصل		
محمد	عبد الله	عبدالرحمن	سعود	
		عبد العزيز		

---

(١) استوطن ضرماء وذريته آل عبد الرحمن المعروفون بالشيوخ .

(٢) من ذريته الوصيب وغيرهم.

(٣) من ذريته آل يحيى أهل بلدة أبا الكباش .

(٤) ربيعة له وطبان جد آل وطبان أهل الزبير الذين صاهروا آل صباح.

(٥) عبد العزيز بن محمد الإمام بعد والده، ثم ابنه سعود ، ثم ابنه عبد الله آخر أئمة الدور الأول.

الشيخ محمد بن عبدالوهاب[1]

١١١٥ - ١٢٠٦هـ

---

[1] راجع عنوان المجد في تاريخ نجد عثمان بن بشر ٦/ ١٥ ج١ ٧٥ ، تاريخ نجد لابن غنام.

نجدي المولد والنشأة، سلفي العقيدة، حنبلي المذهب، تميمي النسب، قوي الشكيمة، رابط الجأش، جريء في قول الحق يتمتع بهيبة الحكام ووقار العلماء، عالم في الفقه، والتوحيد، ملم بكثير من العلوم والمعارف، ولد في بلدة العيينة سنة ١١١٥هـ، ونشأ بها، وتعلم في صغره على مشايخها، ومن بينهم والده عبد الوهاب، ثم رحل في طلب العلم إلى مكة، والمدينة، والأحساء، والقطيف، والبصرة، والزبير، ثم عاد بعد رحلاته العلمية إلى حريملاء مقر إقامة والده بعد انتقاله إليها ، فبدأ ينشر دعوته في حياة والده، وكان والده يعارضه في بعض المسائل، "فشوه الخصوم دعوته، ووقفوا ضدها"، وبعد وفاة والده عبدالوهاب عام ١١٥٣هـ توسع في نشر العلم والدعوة إليه، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتحمس لذلك فأغضب العامة، والخاصة

ما يدعو إليه، ويأمر به، فأرادوا اغتياله والتخلص منه في إحدى الليالي المظلمة، فنجاه الله من الاغتيال، ورد كيد الأعداء إلى نحورهم، ولما لم يجد المناخ الملائم لنشر دعوته، رحل من حريملاء إلى مسقط رأسه بلدة العيينة، باحثاً عن ملاذ آمن يستطيع منه نشر دعوته، وتكوين مجتمع مسلم تطبق فيه الشريعة في جميع المجالات الحياتية، ونظراً لكثرة المعارضين وشراستهم، فإنه مقتنع أن نشر دعوته الدينية وحركته الإصلاحية التي سوف تغير تركيبة المجتمع ونظامه، محتاجة إلى سلطة تحميها، وزعامة تفرضها على الآخرين الذين يرفضون تطبيقها، ولما وصل إلى العيينة رحب به أميرها عثمان بن معمر، وزوّجه ابنة عمه[1] وناصره في دعوته في بداية الأمر، وأزال معه المنكرات

---

[1] تزوج الجوهرة بنت عبد الله بن معمر ، ابن غنام ص٩ .

الموجودة في العيينة وفي الجبيلة، فقاما بقطع الأشجار التي يتبرك بها العامة، ويتعلقون بها، وهدما القبة المقامة على قبر زيد بن الخطاب المزعوم بالجبيلة، والمتخذة مزاراً للعامة، كما قاما بتسوية قبور الصالحين العالية، وأقاما الحدود على المخالفين، فقد بدأ دعوته بالإنكار على شخص يستغيث بمخلوق، فطلب منه أن يستغيث برب ذلك المخلوق.

فاشتهر أمره وشاع ذكره، فلما علم بذلك حاكم الأحساء والقطيف[1] وما حولهما، بعث إلى أمير العيينة عثمان بن معمر، وأمره أن يتخلص منه بالقتل أو الطرد، وأغلظ عليه في ذلك، وإن لم يمتثل قطع عنه الخراج -الإعانة السنوية التي ترسل من الأحساء إلى حاكم العيينة كل عام- مع اتخاذ التدابير الرادعة الأخرى، فعرض ابن معمر

---

(١) سليمان بن محمد بن غرير الحميدي.

على الشيخ الأمر معتذراً، "وقال إن أمير الأحساء قد أمرني بقتلك، ولكن تأبى المروءة والشهامة أن أقتلك في بلدي وأنت صهري وابن قبيلتي، فاختر البلد الذي تحب أن ترحل إليه سالما" فاختار -بعد حوار طويل- "الدرعية"، ثم أرسل معه أحد خيالته على فرس لحراسته، ويروى أنه أمر الفارس أن يُلحِقه بأخيه يعقوب[1] أراد بذلك أن يقتله ويدفنه بجوار قبر أخيه الرجل الصالح، فسار الشيخ راجلاً بيده "المهفة" يقرأ ويسبح ويهلل مردداً قول الله تعالى ﴿ ومن يتق ا لله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾.

---

[1] رجل صالح قتل بين العيينة والدرعية ودفن على قارعة الطريق قبره معروف هناك ، في رواية ضعيفة ذكرها ابن بشر في كتابه في أحد طبعاته وفي بعضها قد حذفها مما يدل على أنه لم يجزم بصحتها ، ولعل الأمر بقتله وهو في طريقه إلى الدرعية رواية لم تثبت لأن المقصود هو إبعاده عن البلد ، وقد حصل القصد بترحيله ، ولا مبرر للقتل بعد أن تخلص منه بالإبعاد ، د. عبد ا لله بن عثيمين ، هامش ٨٤.

ولما وصل إلى قبر يعقوب أراد الفارس قتله تنفيذاً لأمر سيده، ولكن الله كف يده، فأصابه رعب وخوف شديدان، حتى خشي على نفسه، فاعتذر من الشيخ وأخبره بما أمره به سيده، ثم واصل سيره إلى "الدرعية"، ورجع الفارس على جواده إلى سيده في العيينة خائباً خائفاً، ورد الله كيد الأعداء في نحورهم، وكفاه الله شر شرورهم[1] .

فلما قدم الدرعية نزل ضيفاً على أحد تلاميذ الدعوة، فاجتمع حوله المحبون والموالون والمؤيدون من أنصار الدعوة، حتى خاف المضيف من تكاثر التلاميذ وتجمعهم في منزله حول الشيخ، وخشي على نفسه من عقاب محمد بن سعود حين يصل إليه الخبر، ولما كاد أن ينهي

---

(1) هذه تكملة لرواية أن ابن معمر قد أمر بقتله في الطريق ، أما إذا أخذ بالرواية التي تقول بعدم صحة ذلك فهذه ملحقة بما قبلها.

ضيافته له قدم الإمام محمد بن سعود بنفسه زائراً، وعارضاً على الشيخ الإقامة بجانبه، أو في ضيافته، وذلك بمشورة من زوجته وأخويه، فذهب معه الشيخ، وأوضح له الدعوة وأهدافها، وأن هذه الدعوة المباركة التي يقوم بها الشيخ تحمل في ثناياها وبين طياتها بذور بقاء السلطة ورسوخها، وامتداد رقعتها وبسط نفوذها على كل الأقاليم التي تحاربها، فتعاهدا على نشر تلك الدعوة، وكان محمد بن سعود إمام السلطة السياسية، والشيخ محمد بن عبد الوهاب إمام السلطة الدينية، وكل المسائل والأمور التي تدخل في السياسة مسئول عنها إمام السلطة السياسية "محمد بن سعود"، وكل الأمور والمسائل الدينية مسئول عنها إمام السلطة الدينية الشيخ "محمد بن عبد الوهاب"، فتحولت الدرعية بعد هذا الحلف إلى عاصمة دينية وسياسية

تخرج منها حملات الإرشاد ورايات الجهاد[1].

ولا شك أن تعاون الإمام "محمد بن سعود" مع الشيخ "محمد بن عبد الوهاب" قد زاد من فرص انتشار الدعوة، كما أن الدعوة نفسها كانت وسيلة من وسائل توسيع نفوذ الدولة، وبسط السلطة على معظم الأقاليم في شبه الجزيرة العربية، وهذه الدولة التي نراها ثمرة من ثمرات تحالفهما التاريخي، إذ كان من أساسيات الدعوة التركيز على تصحيح انحراف العقائد عند كثير من العوام، وإزالة ما علق بها من

---

(1) ولا يخفى أن أبا بكر رضي الله عنه، خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم قد حارب مانعي الزكاة، وقال والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونها إلى رسول الله لحاربتهم عليها حتى يؤدونها ، ومنع السلطات أتباع الدعوة من الجهر بها ونصرة الإمام ومعاضدته أمر يقتضي إلزامهم من قبل ولي الأمر، حتى يتركوا للموالين والراغبين حرية الجهر بها ونشرها ، فقد كان أعداء الدعوة يمنعون أتباعهم من متابعة الشيخ "محمد" ودعوته الإصلاحية، ويضيقون على من يظنون أنه مؤيد للشيخ "محمد بن عبد الوهاب" في دعوته، وكانت دعوة الشيخ دينية بحتة، والسياسة سلطة تلزم قادة الرعية الذين يمنعون أتباعهم من الدخول فيها ﴿ ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها ﴾ .

الشوائب الشركية، وما ران عليها من الخرافات المنتشرة، التي تمارس بين القبائل، والعودة بالعقيدة إلى نبعها الصافي، وإرجاع الناس إلى السنة النبوية النقية الخالية من البدع، وتوحيد الاتجاهات المذهبية، وجمع الناس على مذهب الإمام أحمد بن حنبل في علوم الفقه، والقضاء، حتى لا تتعدد الفتاوى في القضايا المتماثلة، وتقرير توحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء، والصفات، ومعنى العبادة، ونواقض الإسلام العشرة التي استخلصها الشيخ محمد بن عبد الوهاب من السنة الصحيحة، وبعض التشريعات القضائية التي دار حولها الخلاف مع خصوم الدعوة في قتال أهل الردة، والبغاة وأحكام القتال الذي يدور على الساحة بين الخصوم المتناحرة[1] وإنكارهم ما قرره

---

[1] حكم قتال البغاة كمن يقتل في حد من حدود الله لا يلزم أن يكون كافراً ومع هذا قُتِل، كما أنه ليس بمظلوم بقتله، والباغي يقتل لبغيه لا لأنه كافر، والبغاة يقاتلون لأنهم بغاة، ولا يلزم أن يكونوا كفاراً، وكذلك الزنادقة، والفساق حتى لا ينتشر فسادهم وفسقهم في المجتمعات.

الشيخ بهذا الصدد، وتحقيق معنى "لاإله إلا الله"، وهو أصل التوحيد الذي دعت اليه الرسل، وأنزلت به الكتب، ونشرت من أجله رايات الجهاد، وإلزام الناس بإقامة شعائر الدين ظاهراً وباطناً، وكل هذا حق يقتضيه مبدأ الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وإزالة مظاهر المنكر، كقطع الأشجار التي يتبرك بها الناس، ويعلقون عليها، وتسوية القبور العالية، وهدم القباب المقامة على الأضرحة، وطمس معالم المزارات، والمشاهد البدعية، والشركية، ومنع الاحتفالات بالمولد النبوي، ويوم عاشوراء، والعبادات التي يخص بها شهر رجب وشعبان، والأعياد البدعية، وما يماثلها، ورفع الأصوات الجماعية بالأدعية بعد الأذان، وخلف الجنائز، ومنع النساء من اتباع الجنائز، إلى غير ذلك مما دار حوله الخلاف مع علماء عصره.

كما إن من أهداف الدعوة الإصلاحية -أعلنت أو لم تعلن- جمع أبناء الجزيرة على التوحيد، بعد

تفرقهم، على إمام واحد، وتحت سلطة مركزية واحدة، وتجنيدهم لخدمة أهداف الدعوة، وقد أدرك الإمامان أن تعدد الإمارات، وكثرة الزعامات، يؤدي إلى تكاثر الخلافات، وتراكم النزاعات والتنافس على السلطة، وبالتالي تترجم تلك الخلافات إلى التصادم، والمعارك الدامية بين تلك القوى المتناثرة المتعددة، ولا يخفى أن تشرذم الأقاليم وتمزق المدن الذي ترعاه مصالح عشائرية، يفتت جهود الأمة ويبدد إمكاناتها، وقدراتها، فتكون عاجزة عن أداء رسالتها الإيمانية، وهي نشر الإسلام بين الأنام، في أنحاء المعمورة، وتكون لقمة سائغة لكل طامع، واجتماع الأمة على إمام واحد من مقاصد الإسلام، ولما كشف الشيخ محمد بن عبد الوهاب للإمام حقيقة ما يدعو إليه نوَّر الله بصيرته فالتزم بحمايته، وتأييده ومؤازرته، ثم بشره بالنصر، والتمكين، فاحتواه، واحتوى دعوته، وأنصاره، والموالين له[1] .

---

[1] انظر عن الشيخ محمد بن عبد الوهاب، تاريخ نجد لابن غنام، ١/٧٥-٨٥.

بدء تاريخ الدولة السعودية
في دورها الأول:

ولما أراد الله لهذه الأسرة الكريمة العز والتمكين، والظهور على الآخرين، صرف الله أنظار ولاة المدن والأقاليم عن إيواء هذا الشيخ الكريم، ونصرته ومحبة ما جاء به، وفتح الله قلب محمد بن سعود، وشرح الله صدره لهذه الدعوة، ولصاحبها محمد بن عبد الوهاب، ولما لم يحالفهم الحظ لإيوائه ونصرته، شمروا عن سواعدهم لعداوته وحربه، فزاد حظهم نحسا وسوءاً، وتكالبت عليهم العداوات، والمعارضات من سائر الناس الذين تزاحموا لاعتناق تلك المبادئ التي يدعو إليها الشيخ والإمام حين تحالف السيف والقلم، والكتاب والسلطة، فكانت معاهدة الفتح المباركة، التي جمعت بين القيادتين الروحية والتشريعية، "إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن"، فطوقها الأعداء من كل جانب، وضربوا عليها الحصار المنيع، لإفشال هذا المسعى،

وتقويض هذا الحلف، فبدأ أتباع الإمام الذين اعتنقوا الدعوة والمبادئ التي بشر بها الشيخ ينتقلون ويفدون إلى الدرعية سراً، فيتقوى بهم الإمامان، وتنتصر بهم الدعوة، ويضعف بنزوحهم العدو. وممن ناصبها العداء، وأشهر سيف الحرب في وجه الدعوة "دهام بن دواس" أمير بلدة الرياض الذي ظل سبعاً وعشرين سنة يحاربهم بالسهام، والسنان، واللسان، والعدد، والعدة، حتى أذله الله وخذله، وخرج من الرياض يائساً بائساً ذليلاً، هو وشرذمة من أتباعه وأسرته، هائماً على وجهه، قاصداً الدلم في الجنوب، حتى هلك نحو أربعمائة من أتباعه جوعاً، وعطشاً في صحارى السهباء شرقي الخرج، وقد بلغت المعارك التي خاضها ضد حكام الدرعية أكثر من عشرين معركة خسر أكثرها ولكن عنصر الشر قوي المراس يصعب استئصاله وبتره.

لقد بلغت الدولة السعودية في دورها الأول وفي عهد الإمام عبد العزيز بن محمد وابنه سعود أوجها، وغطى نفوذها معظم أجزاء شبه الجزيرة العربية، فقد اجتاحت طلائع جيشها العراق، والشام، وعمان، والبحرين، واليمن، وسوى قبر الحسين في كربلاء، وتحسنت أوضاع الناس المادية والمعنوية، وأحسوا بالاستقرار والأمن، على الرغم من الغزوات المتقطعة التي تتعاقب، وتدور على أرضها بين حين وآخر، ولكنها غالباً ما تكون في أطراف البلاد، وعلى نطاق ضيق، إلا أن انتشار الدعوة، وامتداد نفوذ الحكام، قد زاد من الضغوط على الدولة العثمانية، وأسقط هيبتها أمام دول العالم مما جعلها تحس بالضيق، وتشعر بالضجر، وتصدر أوامرها إلى ولاتها بالعراق، والشام بردع الحكام السعوديين، وصد هجومهم

علــى ثغورهــا، ومرافئهــا، وولاياتهــا المتاخمـــة للحدود السعودية، ولكن الولاة لم يفلحوا فــي صـد تلك الهجمات، مما سوف يأتي تفصيله فيما بعد.

دهام بن دواس[1]

وملحمة الرياض

---

(1) كان والده دواس بن عبد الله بن شعلان "من أهل منفوحة " قتل عدداً من الجلاليل، وكان رئيساً لمنفوحة متغلباً عليها ، فلما مات دواس عام ١١٣٩هـ تولى ابنه محمد ثم قتله ابنه عمه زامل بن فارس بن عبد الله باتفاق مع أهل منفوحة وأجلوا إخوانه دهام وعبدا لله ومثلب وتركي وفهد ونزلوا في الرياض واستوطنوا فيها، وكان واليها زيد بن موسى فزوجوه أختهم بنت دواس ، فلما قتل زيد عام ١١٤٦هـ تولى الإمارة من بعده أحد مماليكه مدة تزيد على السنتين، ثم خاف من أهل الرياض وهرب المملوك بسبب سوء قيادته، فكان دهام بن دواس قريباً من بيت الإمارة بحكم مصاهرته، وكان للأمير المقتول طفل صغير من ابنة دواس، فادعى دهام الوصاية على هذا الطفل بحكم الخؤولة، فتولى الإمارة باسمه ثم استأثر بها لنفسه، وأجلى ابن أخته عن الرياض، وحكمها ما يزيد على أربعين سنة حتى أخرجه منها الإمام عبد العزيز بن محمد بن سعود عام ١١٨٧هـ سنة سقوط الرياض (١/٨٠) عنوان المجد في تاريخ نجد/ عثمان بن بشر ، ٩٣ د. عبدا لله العثيمين/ تاريخ المملكة.

تعد الوقعات التي دارت بين "دهام بن دواس" أمير الرياض، وحكام الدرعية معركة واحدة، متصلة الحلقات، موزعة على عدد من الأوقات، فباعثها واحد، والأطراف أنفسهم، وحلقاتها متصلة إذا استبعد ما بين الوقعات من فراغ، وقد ظلت الحرب نحواً من سبع وعشرين سنة قائمة لم تضع أوزارها، وإذا كانت العرب في الجاهلية تضرب المثل بحرب البسوس بأنها أطول المعارك في حروبهم، فإنه يجوز لنا أن نطلق على ملحمة دهام بن دواس "بسوس التاريخ الحديث" أو "بسوس القرن الثاني عشر".. لأنها على ما أظن أطول ملحمة دموية في التاريخ الحديث، حيث ظلت أكثر من سبع وعشرين سنة تراوح في مكانها بين الكر والفر، والمد والجزر، فقد استمرت حالة الحرب معلنة دون انقطاع، إلا ما يتخللها من فترات راحة ميدانية قد لا تطول،

وأما الراحة النفسية فانها -لا محالـة- مفقـودة، أو معلقـة، لأن هجـوم العـدو متوقـع فـي كـل لحظــة، ونذيـر الحـرب فـي أبــراج المراقبــة علــى أهبــة الاستعداد.

وقـد بـدأت هـذه المعركـة أو هــذه الملحمــة الدامية في عام ١١٥٩هـ باحتلال "دهام بن دواس" بلدة "منفوحة" التي تبعد عن الرياض بمقدار ساعة للراجل.. واستنجاد أهلها بالإمام "محمد بن سـعود" حاكم الدرعية آنذاك، فسارع إلى نجدتهـم بارسـال قوة بقيادة أخيه عبد الله بن سـعود، فـأنقذوا البـلاد مـن الاحتــلال، وخلصوهــا مــن براثــن الوحــش الكاسـر، فهـرب "دهـام بـن دواس" إلــى الريــاض، وجرح جرحين، وقتل جواده، فكانت هـذه الواقعـة السبب في إشعال فتيل الحرب بين الطرفين.[1]

---

[1] عنوان المجد في تاريخ نجد، عثمان بن بشـر ، ١/١٧ أحـداث سـنة ١١٥٩هـ، تاريخ نجد/ حسين بن غنام ٩١-٩٢ .

ومن يوم تلك الحادثة وجسر التفاهم مقطوع، وراية الخلاف مرفوعة، وشبح الحرب يلوح في الأفق، وقرع طبولها تردد صداه بروج الرياض وقلاع الدرعية، تلا ذلك انتهاكات فردية متقطعة وتحرشات استفزازية وتعديات تجاوزت الحدود نشأ عنها معركة بين أهل الرياض من جهة وأهل الدرعية وعرقة من جهة أخرى، خسر فيها الطرفان عدداً من القتلى والجرحى، ثم توالت الوقعات، واستمرت المعارك في أماكن متعددة، وأوقات مختلفة، منها وقعة "الوشام" ووقعة "دلقة"، ووقعة "الحبونية"، و"الرشا"، و"أم العصافير" وغيرها تخلل تلك المدة رغبة الظالم العنيد في الصلح والمهادنة، وكأنه أراد بهذا الصلح أن يستعيد أنفاسه لأنه قد سئم -كما يقول- من الحرب والنزال المستمر الذي بدد قوته، وأضعف قدرته، ولم يحصل من ورائه على مراده، أو أي

مكسب من المكاسب، ورضخ للدعوة وأعتنقها وأمسك عن معارضة أتباعها من الموالين له، بل إنه طلب من الشيخ أن يبعث له أحد المشايخ يشرح لهم ما خفي عليهم من المنهج، ولكنه في الحقيقة لم يكن صادقاً في ذلك، ولم يثبت على حاله تلك، فقد أكل قلبه الحسد، وسوء الظن، وتوجس من نفسه القوة فنقض العهد، واستعان "بمحمد بن فارس" أمير منفوحة وأمير "ثرمداء"، وهجموا على "حريملاء" الموالية للدرعية، فاستنجدوا بالإمام "محمد بن سعود"، فجرت بينهم معركة قتل فيها من الفريقين عدة قتلى وتسمى وقعة "الدار"[1] وذلك في شهر ذي القعدة عام ١١٦٨هـ، فخسر فيها الطرفان رجالاً أشداء، فلو

---

(١) حيث كان محمد بن سعود السبب في تثبيت حكمه في الرياض عندما حاصره أهلها لخلعه استنجد بالإمام فأرسل له حملة بقيادة أخيه مشاري لحسم الخلاف، وبقي عنده مدة حتى استتب له الأمر.

صدقت نيته واتخذ من هذه الهدنة فرصة لمراجعة صفحات التاريخ المشترك، وقائمة المصالح، والمكاسب، لخلع رداء الكبرياء جانباً، وعمامة العناد والتعالي خلفه واجتمع بالإمامين الكريمين، ثم واجهوا واقعهم بشيء من المنطق والحكمة، ونظروا إلى ما آلت إليه الحال بمنظار المصالح المتبادلة التي تفرضها حاجتهم لبعضهم، وطرح الخلافات بعيداً، ثم أحلوا محلها الوفاق الذي يبعد شبح الحرب، ويحقن دماءالمسلمين، ويرفع من شأنهم، ثم ينتزع منهما الموافقة على ما يريد، وهو بقاؤه أميراً في الرياض ما دام قائماً بالأمر داخل دائرة السلطة المركزية، وليس التحاكم إلى الحق مهمة صعبة، أو غمطاً لهيبة الزعماء، بل إنها خطوة تحول دون تفجير المواقف، وشد أشطانها وإشعال الحروب، وإيقاد فتيلها، وتطرح المسائل المستعصية على طاولات التفاهم والحلول

العادلة، ولكنه ظل خلال هذه المدة الطويلة يركز على تكوين الجبهات، وجمع السلاح وبناء القلاع والحصون القوية، لمواجهة الخصوم، وشن الحروب، المدمرة المستمرة، ولم يفكر يوماً من الأيام بأن الحل الأمثل يكون بالتفاهم لا بالتصادم وسفك الدماء، ناسياً أو متناسياً أن الرعايا والأتباع يبحثون عن لقمة العيش، والأمن والاستقرار، وأنهم بحاجة إلى وضع السلاح الذي تنزف من حمله الجراح، لقد فقد "دهام بن دواس" أخاه " فهد" عام ١١٧٤هـ، وأصيب ابنه "شعلان" عام ١١٧٥هـ[١] ، ومع ذلك لم يمتثل أو يتراجع.

وعلى الرغم من إلحاق الضرر به من تعدد المعارك، والهجمات المتلاحقة فإن تلك الضربات القاسية الموجعة التي كان يتلقاها من خصومه لم تؤدبه، وإن كان يتلقاها بروح مثخنة بالجراح،

---

[١] عنوان المجد في تاريخ نجد ، عثمان بن بشر ، ٢٩ أحداث ١١٦٨هـ .

ولكنه حينما يندمل الجرح ينسى كل تلك المآسي المفجعة، والخاسر المقتول، والجريح، والمسلوب يستعد للأخرى، وهو مجرد متفرج من أتفه الفضوليين.

وفي عام ١١٨٥هـ قتل ابناه "دواس" و"سعدون" أثناء هجومهما على "عرقة" حينما صادف الحملة عبدالعزيز، فعثرت فرس دواس في صفاة الظهرة -بين عرقة والفوارة- فأمسكوه وقتله عبدالعزيز، وقتل أخاه سعدون، وقتل من رجاله نحو عشرين رجلاً، فكانت صدمة عنيفة على "دهام بن دواس"، ثم حمي بعدها الوطيس بين الخصمين ودارت فيه ثلاث معارك كلها تنتهي بما انتهت به سابقاتها، خسائر من الطرفين، وفي عام ١١٨٧هـ بدأت بوادر انتهاء فصول هذه الملحمة الدرامية تلوح في الأفق، ففيها سار عبدالعزيز بالجنود نحو الرياض، ونازلهم أياماً

عديدة، وضيق عليهم الخناق، فاستولى على بروجها برجاً برجاً، وهدمها وهدم المرقب، وقُتل من أهلها خلق كثير وذلك في شهر صفر من تلك السنة، وتحصن دهام في القصر المنيع، ثم أعاد عبد العزيز الكرة عليهم في شهر ربيع الثاني، ومعه الجنود المظفرة، ولما وصل إلى عرقة قابله البشير بأن دهام بن دواس قد فر من الرياض هارباً، فقد ألقى الله في قلبه الرعب، وخرج في رابعة النهار- بعوائله وخواصه وأتباعه متجهاً نحو صحراء السهباء شرقي الخرج، "وربما كان قاصداً حكام الأحساء الأقرباء إلى قلبه الجريح حيث وافته المنية هناك، أما أتباعه فإنما أرادوا بلدة الدلم مهاجراً لهم"[1] وقد وافق يوم خروجه يوماً قائظاً شديد الحر، فهلك من أتباعه الذين خرجوا معه عدد كثير من الخوف والهلع،

---

[1] تاريخ نجد لابن غنام، ص١٣٥ .

وصعوبة الطقس نحو أربعمائة، فقدم عبد العزيز بعد العصر من ذلك اليوم إلى الرياض، فوجدها خالية من أهلها إلا العاجز والضعيف، وقد تركوا أموالهم وما يملكون من سلاح وأمتعة وأطعمة حتى المنازل تركوا أبوابها مفتوحة لم تغلق، فسقطت الرياض واستولى على بيوتها، وعلى ما فيها، وبهذا تخلصت الدعوة من عدو مبير حاربهم أكثر من سبع وعشرين سنة، ولهذا فإن هذه الملحمة تعد من المعارك الفاصلة حيث طوت حكما قائماً إلى الأبد وعدواً عنيداً من ألد أعداء الدعوة.(١)

---

(١) عنوان المجد في تاريخ نجد ، عثمان بن بشر ، ص١٧ - ٦٧ ، وكذلك تاريخ نجد لحسين بن غنام ، ص١٣٥ .

لقد أجمل المؤرخ ابن بشر في كتابه "عنوان المجد" الوقعات التي حصلت بين دهام بن دواس وبين إمارة الدرعية بعضها أثبته في الأصل والبعض تجاوزت عن نقله خشية التطويل، ولأن صور الوقعات متماثلة، وتكميلا للفائدة، فإن كان القارئ سوف يجد بقية الوقعات في هذه الحاشية ومن ذلك حصلت معركة بينه وبين أهل العمارية وعرقة والدرعية قتل فيها عدد من الفريقين وفيها وقعة الشياب التقى فيها الفريقان بالوشام "جبل

جانب البلد" هزم فيها دهام بن دواس، وقتل من رجاله نحواً من عشرة، منهم اثنان شباب من آل شمس ، ٩٢ حسين بن غنام ، تاريخ نجد.

ومنها وقعة العبيد في جرف عبيان بين أهل الدرعية وعرقة من جهة وبين دهام بن دواس قتل من رجال دهام عشرة أغلبهم من المماليك، وكانت الهزيمة على أهل الرياض وفي سنة ١١٦٠هـ أراد دهام أن يأخذ بثأره في الوقعات الماضية التي هزم فيها فأعد لهم كميناً كعادتهم إذا ارادوا المكر بالخصم أعدوا له الكمين واذا التقى الفريقان تظاهر الفريق الذي أعد الكمين بالهزيمة وولى هارباً فاذا تبعه الخصم وقع في الكمين فخرج عليهم الكمين من الخلف فقتلوهم، وفي هذه الموقعة وقع أهل الدرعية فيما أعده لهم دهام حيث خرج على أهل الدرعية الكمين الذي نصبه لهم فقتل منهم رجالاً منهم فيصل وسعود ابنا محمد بن سعود فاشتدت الحرب بين الطرفين.

ثم وقعة دلقة وتسمى "وقعة الشراك" -موضع في الرياض- جمع فيها محمد بن سعود أهل الدرعية وأهل حريملاء وأهل منفوحة وأمير الحملة عثمان بن حمد بن معمر وساروا إلى الرياض فذهب رجل من الغزو وأخبر دهام بمسيرتهم، فاستعد لهم، وكانوا يريدون مباغتته، ولكن الخبر سبقهم إليه، وانتهت المعركة بقتلى من الفريقين.

وفي سنة ١١٦١هـ جرت بينهم وقعة البنية -موضع معروف بالرياض- فقد سار عبد العزيز بن محمد بن سعود ومعه أهل الدرعية وقراها وأهل ضرما وحريملاء وعثمان بن معمر بأهل العيينة، وهو أمير الحملة، فهجموا على حي مقرن ثم حي صياح وكادت أن تكون المعركة لهم، ولكن تكاثر عليهم (الفزاعة)، فصارت الهزيمة على جبهة الدرعية، فقتل منهم ٤٥ رجلاً فيهم ٢٥ رجلاً من أهل حريملاء.

ضم بلدان وسط نجد

في أحلك الفترات التاريخية لشبه الجزيرة العربية، تعددت السلطات، وتنوعت الزعامات، وكل سلطة مستقلة تحارب السلطة الأخرى، ومن النادر اتفاقهما بسبب الخلافات المستمرة التي تتجدد بين الأطراف كل حين، ولا يستغرب، أو يستنكر الخلاف الشائع بين سلطة، وسلطة في هذه البيئة القبلية الفجة، وليس هناك فارق كبير بين البادية والحاضرة في هذا الجانب، ففي معظم الأوقات يكون حبل الخلاف مشدوداً، وأسباب الحرب قائمة لا تضع أوزارها، فالزعيم يظل جُل وقته دائم الترقب، إما مدافعاً أو مهاجماً، ولا بد من أحد الأمرين، فالاستقرار السياسي مفقود في نجد، أما الصراع الأسري حول السلطة فإنه مألوف ومعروف في تاريخ الأسر الحاكمة في مختلف البلدان، وفي سائر الفترات التاريخية، ولكن شراسة هذا الصراع تتأثر باختلاف

الظروف والأحوال، ففي بعض الحالات يبلغ العنف أشده، فينشأ عن ذلك عداوات عنيفة قد تصل إلى القتل، ويحل بالقبيلة التفكك السياسي، والتمزق الأسري، وتتردى أوضاع الترابط أو تنهار، فتستغل هذا التمزق جهات أخرى متربصة، تكون في هذه الفترة أكثر استقراراً، فتضع يدها وتبسط نفوذها فتضم ما تستطيع ضمه، وتطوي صحائف الزعامة البائدة، وكلما قويت سلطة توسعت طولاً وعرضاً على حساب جاراتها، حتى تقوم سلطة كبرى على أنقاض سلطات، وتصبح الأمم أمة واحدة والمجتمعات المتفرقة مجتمعاً واحداً، والكلمات كلمة، والآراء المتصارعة تصب في ملتقى واحد، ولكن هذا الاجتماع سرعان ما يتفرق، كما تمزقت الدولة العثمانية.

ولم يكن هناك رؤية سياسية موحدة قبل تبلورها في أذهان قادة الدرعية، حيث تبنوها ورعوها، ثم قاموا بتوحيد تلك الأقاليم المتعددة على أساسها، لكن بأهداف مختلفة عن الأهداف السياسية الأخرى التي تلهث خلف الأطماع المادية البحتة، وتختلف الصراعات وتتفاضل الحروب باختلاف المقاصد والأهداف، فبعضها يكون في سبيل الله، والبعض الآخر يكون في سبيل الزعامة والسلطة، فإذا كان المحارب المسلم يعتقد أنه يحارب في سبيل الله، فإنه لا يبالي كيف كانت النتيجة، أما إذا كان يحارب في صفوف أهل الأهواء، والأطماع السياسية، فإنه يحسب للموت ألف حساب وحساب، وعلى هذا المنوال تبنى نتائج المعارك، وفرق بين مطامع الزعامة الفردية، ومطامح الإمامة الإصلاحية ، فأهداف قادة الدرعية لا شك أنها خيّرة ومباركة، ومن تلك

الأهداف تصحيح العقيدة، ونشر الدعوة الإصلاحية، ولا مقارنة بين النزاع القائم على الأطماع السياسية، والنزاع القائم على إصلاح الراعي والرعية، وجمع كلمة الأمة على الحق والدين، وكانت فكرة التوحيد رؤية سياسية متطورة اقتضتها الحركة الإصلاحية، ونشر الدعوة السلفية، وتصحيح العقيدة الإيمانية، لأنها أمر بالمعروف ونهي عن المنكر، وهو مبدأ من مبادئ الإسلام لا يستقيم الإسلام إلا بوجوده، كما أنه عنصر من عناصر تنظيم المجتمعات البشرية قديمها وحديثها، وقد فكر بها أكثر من زعيم نجدي، ولكنها لم تتحقق لأحد منهم قبل الإمام محمد بن سعود، حينما ناصر الدعوة السلفية، وامتزجت السياسة بالدين، لأن الإسلام دين ودولة.

فالإسلام يزدهر بالدولة، والدولة تعتز بالإسلام، ولقد أحدثت القوة المركبة من الدين والدولة معجزة غير مسبوقة، دولة موحدة قوية، ذات سيادة وقيادة وريادة، على درجة ممتازة من الأهمية والاستقرار، وخلقت مناخاً مريحاً لممارسة العبادات، وطلب العلم، كما خلقت جواً مناسباً لأداء شعائر الدين بسهولة ويسر داخل الحدود والأقاليم التي دانت لها.

وقد كانت تلك الأقاليم المفككة تعاني من تردي الأوضاع السياسية فيها، بسبب التفرق، والصراعات المختلفة، والحروب الأهلية الدامية، مما شجع جيرانها على الطمع بها من الأشراف في الغرب، وبني خالد في الشرق، وتناوب الطرفان في فرض نوع من التبعية والنفوذ السياسي، وإرهاقها بما تحصل عليه من الضرائب، فكانت دعوة الشيخ محمد بن

عبدالوهاب من أسباب إنقاذها من محنة التفرق، والضعف، والتناحر فيما بينها ، وتصفيتها من قبل أعدائها تصفية نهائية، وقد قام حكام الدرعية بضم مدن نجد وأقاليمها بترتيب منطقي، وإن لم يكن الترتيب مقصوداً بقدر ما كانت تفرضه الأحداث.

وباستعراض سريع لمراحل توحيد أقاليم نجد ومدنها، وتحريرها من قبضة الزعامات المحلية المستعصية، وإلحاقها بالقاعدة الدرعية، تحت ظل حكم مركزي واحد، يلاحظ أن هذا الدمج استغرق ما لا يقل عن أربعين سنة، بدأ من عام ١١٥٨هـ حتى عام ١٢٠٨هـ، وقد استغرقت حرب الرياض وحدها من هذه الفترة ثماني وعشرين سنة تقريباً، وإقليم الخرج -الذي كان من أعنف الأقاليم النجدية مقاومة، ومعارضة لقادة الدرعية- ثلاث عشرة سنة من سقوط الرياض ١١٨٧هـ حتى نهاية القرن الثاني عشر، ولم تكن

تلك هي البداية الحقيقية للتحرير، إذ سبقتها اشتباكات متقطعة، ولكنها بداية النشاط المتواصل، والتركيز على ضبط هذا الإقليم الذي كثرت مشاغباته، ونكث العهود والمواثيق، وزعزعة الأمن، ونشر الذعر في ربوعه، وجرجرة الغزاة إلى حرب أهلية، وتدميره وخرابه، والتعاون مع المخربين، ولا يظن ظان أن هذه الإطالة في الحرب اقتضتها القوة الدفاعية، أو العجز الهجومي من قادة الدرعية، لأن بإمكان جيش التوحيد اذا ما انتصر في إحدى المعارك حسم النزاع من جذوره بمتابعة الخصوم، والقضاء عليهم وسحقهم نهائياً، ولكن حرب جيش التوحيد وحماة العقيدة محكوم بقواعد دينية، وأصول أخلاقية يسيرون عليها، فاذا بدت بوادر الهزيمة على الخصوم تركوهم، وتراجعوا عنهم، لأنه لا يجوز قتل المنهزم، ولا من ألقى السلاح، ولا ترويع الآمنين، وهذه الأخلاقيات التي

يتمسك بها قادة الدرعية من أكبر أسباب إعاقة إنجاز التحرير، وإن كان قد تحقق في النهاية، إضافة إلى أن قادة الدرعية لا يبدأون أحداً بحرب، ولا هجوم أبداً، فلا يتحرك أنصار الحق إلا لصد هجوم أو تأديب ناكث، أو إخماد فتنة أو إغاثة مستغيث من البلدان التابعة والموالية.

وأما ضم القصيم فإنه لم يستغرق وقتاً طويلاً ولا جهداً كبيراً على الرغم من اتساع رقعته، ووعورة طرقه، وعناد أهله وشجاعتهم، وكثرة سكانه، لأن القاعدة الشعبية تؤيد الحكم السعودي في الدرعية، وتوجهاتهم الدينية تميل إلى الدعوة السلفية، فكثير منهم قد دخل في الدعوة واعتنقها منذ بزوغها، ومعظم المتعلمين منهم من دعاتها وأنصارها[1].

---

(1) وقد بعث والي بريدة راشد الدريبي إلى الامام عبد العزيز يطلب حضوره إلى القصيم، وبمجرد وصول جند التوحيد إلى القصيم حصل اشتباك بسيط في عنيزة، ثم دانت له الجموع، وأعلنت ولاءها عام ١١٨٢ هـ، وظل راشد الدريبي حاكماً باسم الإمام عبد العزيز.

كما وجد في بعض المواقف أن الأهالي يتعاونون مع الجبهة السعودية، ويفتحون لها أبواب البلدان، وإن كان الحاكم المحلي قد تحصن في قلاعها، كما أن في الحكام المحليين في القصيم وغيره من تحمس لمناصرة الدعوة، وقاد الحملات العسكرية لإخضاع الجهات التي ما زالت باقية على وضعها المعادي، كما فعل حجيلان بن حمد أمير بريدة عام ١٢٠٠هـ، حينما قام بقيادة حملة سعودية إلى جبل شمر، وضمه إلى قاعدة الدرعية، وكما فعل أمير جبل شمر فيما بعد بقيادة حملة سعودية لغزو قطاع من الشرارات حول الجوف الذين يقطعون الطرق ويعترضون القوافل التجارية، ويخيفون السابلة، والحجاج القادمين من تلك الجهات إلى مكة المكرمة، وكما قام أمير شقراء "محمد بن معيقل" بغزو الجوف، وفتح دومة الجندل، ووادي السرحان وخيبر،

وتيماء[1]، وهذا التعاون الصادق والاندماج من أهم عوامل نجاح حكام الدرعية في توحيد أقاليمها، حتى استطاعوا بتلك الجهود غزو العراق، والشام، ومصر، واليمن، حتى وصل نفوذهم أقصى حدود شبه الجزيرة العربية من كل النواحي، ومختلف الجهات[2].

---

[1] انظر تاريخ نجد لابن غنام ، ص١٨٨.

[2] انظر عنوان المجد ، ابن بشر ، ١/٨٠ - ١/٨٢ - ٢/١٠١ .

ضم منطقة القصيم

منطقة القصيم متباعدة المدى، واسعة الأرجاء، متعددة المدن والقرى، وكانت قاعدتها مدينة "بريدة"، وأميرها يكون أميراً للمنطقة كلها في الظروف المستقرة، أما في الحالات الطارئة والفتن، فإن النزعة الاستقلالية تسيطر على زعماء المدن الأخرى.

وأما "بريدة" فإنها كانت بئر ماء في أرض رملية مستوية، بين قرى متناثرة، تحيط بها كثبان الرمال وتقع جنوب شرق "الشماس" البلد القديم المعروف، وكان ماء ذلك البئر تغلب عليه البرودة فسمي المكان وما جاوره "بريدة" بما يوصف به البئر الباردة على غير قياس لغوي[1]، اشترى ذلك البئر وما حوله من أرض فضاء "راشد الدريبي" التميمي القادم من "ثرمداء"، اشتراها، أو

---

(1) وقد تكون غلبت العامية على الاسم، وتصريفه، لأن "بريدة" تصغير "بردة"، أما تصغير "باردة" على القياس اللغوي فهو "بويردة ".

استقطعها من آل هذال من شيوخ قبيلة "عنزة"، وذلك عام ٩٨٥هـ ، فأحياها وبنى فيها[١] ، ونزلها تحت حمايتهم، ولا يعني أن تأسيس البلد كان في ذلك الوقت، ولكن الاسم الجديد لهذه البئر قد غلب على المكان وما حوله لأن "راشد الدريبي" قد اشتهر من ذلك التاريخ، وأصبح زعيماً لتلك الناحية، وبسبب هذه الشهرة سمي المكان الذي كان يملكه وما حوله باسم منزلته، وبقي الاسم الأول "الشماس" علماً على ذلك

---

(١) -على هذا الفرض- قد يكون باعها على الدريبي بحكم نفوذه لا بحكم ملكيته لها، وقد يكون باعها بثمن بخس ببعير، أو فرس أو ببعض الماشية، وليس من الضرورة أن يكون الثمن نقوداً لأنهم كثيراً ما يتعاملون بالمقايضة، وقيل إن الدريبي لما قدم من ثرمداء، ونزل على ابن هذال في منازل عنزة في القصيم، ثم طلب منه مكاناً يسكنه هو وجماعته، فأرشده ابن هذال إلى هذا المكان "بريدة"، فطلب منه الحماية بعد نزوله فيه، فوافق على حمايته، حتى استقر، واشتد، واستطاع الدفاع عن نفسه، وعن حماه.

الجزء القديم فقط[١] ، ومن ذلك التاريخ وزعامة "بريدة" وما تبعها لراشد الدريبي، وظل يتوارثها أبناؤه من بعده، ومن غلبهم عليها من أبناء عمومتهم فمرة تكون الزعامة لمن بقي لهم الاسم "الدريبي" ومرة ينتقل إلى "آل عليان" أبناء عمومتهم الذين انتسبوا إلى جدهم "عليان" وهكذا يظل النزاع قائماً بينهما فترة إمارتهم التي انتهت بولاية عبد العزيز بن محمد

---

[١] كان موقع مركز بريدة ضاحية من ضواحي "الشماس" تقع فيها مزارعهم ومواردهم لوقوعها على ضفاف وادي الرمة على نهاية امتداد مفارشه شمالاً، وكان يتوسع كثيراً وخاصة بعد أن ضيقت رمال الدهنا مخرجه إلى الخليج من جهة الحفر، وكان يفرش إلى ما وراء الشماس إذ كان لا يوجد رمال بالشكل الحالي، فقد تكونت الرمال مؤخراً بعد وجود مصدات الرمال من الأشجار، والنخيل، والمباني التي تكون سبباً في وضع الرياح أحمالها، وأثقالاً من الرمال بعد اصطدامها بالحواجز التي تعرقل سيرها بحملها.

"آل عليان" [1] عام ١٢٧٧هـ في عهد الإمام فيصل بن تركي.

وكانت بريدة وما يتبعها موالية لحكومة الدرعية أثبت هذا الولاء الصامت دعوة أميرها راشد الدريبي عام ١١٨٢هـ للإمام عبد العزيز بالحضور إلى ناحيته وسوف يكون عوناً له

---

[1] الذي قتل في الشقيقة غرب عنيزة هو وثلاثة من أفراد أسرته، وثلاثة من الخدم، وهو في طريقه هارباً إلى مكة، ثم الحق به ابنه عبدالله الذي كان رهينة في الرياض لدى الإمام فيصل، فهرب من الإقامة الجبرية المفروضة عليه في الرياض، ولكنهم طاردوه فقبضوا عليه، وسجنوه في القطيف، حتى مات، وهدم عبد الله بن فيصل بيوته التي في بريدة، وبيوت أبنائه بسبب نكثه العهد أكثر من مرة، وتولى الإمارة بعده عبد الرحمن بن إبراهيم من أهل البلد المعروف تاريخياً "أبا الكباش".

- (راجع الأحوال السياسيةفي القصيم للدكتورالسلمان:ص٢٠٠)، وانظر عقد الدرر حوادث عام ١٢٧٧هـ لابن عيسى ، وقد لايكون الذي قتله آل عليان لأنهم لوكانوا قتلوه لتولوا الأمرمن بعده.

وناصراً، فلما أتى سعود اليهم بالجنود توجهوا إلى عنيزة، ومعهم أمير بريدة راشد الدريبي[1] .

وظل راشد الدريبي في إمارته وولائه لقادة الدرعية، بعد أن استردوا الإمارة من الدريبي، وأخرجوه منها، حتى تولى الإمارة عبد الله الحسن، وقد أعطى الولاء هو الآخر لحكام الدرعية بدليل ذهاب "الدريبي" الأمير المبعد من إمارته - إلى حكام الأحساء - أعداء حكام

---

[1] (وفي عام ١١٥٣ هـ استولى حمود الدريبي على إمارة بريدة انتزاعاً من حسن بن عليان، وقتل منهم ثمانية رجال، ولكنه ما لبث أن قتل في السنة التي تلتها ثأرا للمقتولين. وتولى الأمر من بعده أخوه "راشد الدريبي"، فطلب آل عليان تدخل المجاورين والموالين والأنصار من آل شماس أمراء الشماس، وأمير عنيزة وعرب من الظفير لحل الخلاف الناشب بين أبناء العمومة، فحاصر المجتمعون بريدة، ونهبوا الجهة الجنوبية من البلد، ولكنهم لم يستطيعوا الاستيلاء عليها)، وفي عام ١١٨٢ هـ أرسل أمير بريدة راشد الدريبي إلى حاكم الدرعية الامام عبد العزيز أن يبعث الجيوش لإدخال المنطقة في سلطة حاكم الدرعية.

الدرعية – ليستعين بهم في رد إمارته إليه[1] ، ثم عاد إلى بريدة بصحبة حاكم الأحساء "عريعر بن دجين" الذي فتح بريدة وأسر أميرها عبد الله الحسن، ومكن راشد الدريبي من إمارته عام ١١٨٨هـ.

وكانت استعانة "راشد الدريبي" بـ"عريعر بن دجين" فرصة سانحة لحكام الأحساء للاستيلاء على القصيم بادئاً بالقاعدة "بريدة" ومستعيناً بأميرها السابق الذي حضر إليه مستنجداً به، فأخذها عنوة وأعاد اليها أميرها "راشد الدريبي"، ثم نزل في "الخابية" يستعد لغزو البلدان التي في طريقه إلى الدرعية ولكن عاجله الأجل، فمات في ذلك المنزل بعد شهر من استيلائه على "بريدة"،

---

[1] وقدكان قبل هذا موالياً للإمام، وهو الذي قد طلب منه الحضور إلى القصيم، وحارب مع جيش الدعوة في معركة باب شارخ في عنيزة.

فتولى تلك الجموع ابنه "بطين" وأراد أن يكمل ما بدأه أبوه، ولكن لم يستطع، ثم عاد إلى الأحساء وفيه قتله أخواه "سعدون" و"دجين" خنقا في البيت، ثم تولى الأمر "دجين"، ولكنه ما لبث أن مات، ويقال إن أخاه سعدوناً دس له سما فأكله فمات، ثم تولى الأمر من بعده في بني خالد وفي الأحساء.

ولكن الإمام عبد العزيز لم يترك الأمور، كما أراد حاكم الأحساء، بل سار بجموعه إلى القصيم، فقصد "بريدة" وذلك في عام ١١٨٩هـ ومعه أميرها السابق "عبد الله الحسن" الذي استطاع الفرار من الأسر بعد موت "عريعر بن دجين"، وتوجه إلى "الدرعية"، ومعه بقية حمولة العليان الذين جلوا إلى "الدرعية" بعد تولي الدريبي واحتلال البلد باسم حكام الأحساء، فحاصر بريدة ولكنه لم يستطع الاستيلاء عليها، فبنى قصراً في "بريدة" وجعل فيه حامية مرابطة

وولى عليها "عبد الله الحسن"، فلما أضر بهم الحصار طلب أميرها "راشد الدريبي" الأمان، ومن ثم التسليم، فامَّنه "عبد الله الحسن"، ثم خرج راشد الدريبي ، واستولى عبد الله الحسن الموالي للإمام على البلد، ولكنه لم يلبث أن غزا مع الإمام عبدالعزيز "آل مرة" في جهات الخرج، فقتل في معركة مخيريق عام ١١٩٠هـ، ثم تولى بعده ابن عمه حجيلان بن حمد، وبعد توليه الإمارة في "بريدة" ساد نوع من الاستقرار الإقليمي، إلا أن أهل الشغب والمصالح والأهواء ما زالوا يتعاونون سراً وعلناً مع حكام الأحساء، فقد كتب حاكم الأحساء -بتعاون من العناصر الموالية له- إلى أهل القصيم بالتخلص من المتطوعين والمرشدين المكلفين من قبل الإمام عبدالعزيز، وإلا تعرض أهل القصيم لغزو سعدون ابن عريعر، فرفض الأوامر أهل بريدة والرس والتنومة "من مدن الأسياح"، وسارع إلى تنفيذ الأوامر كل من أهل الخبراء والجناح، وقتلوا

المتطوعين الموجودين عندهم، وقدم سعدون إلى القصيم بجموعه الكثيرة، وكانت قد سبقت إليهم أوامره، فحاصر بريدة وخاف أهل عنيزة بعد قدومه من عقوبة التباطؤ في تنفيذ أوامره، فأرسلوا إليه "المطاوعة" الذين لديهم، ليثبتوا له البقاء على العهد وحسن النية، فقتلهم صبراً[١] ، وشكر لأهل "عنيزة" صنيعهم ذلك، فعلم حجيلان بن حمد بالعناصر الموالية لحكام الأحساء، والمتخاذلة عن الثبوت في وجه الغزاة، وكان على رأس أولئك "سليمان الحجيلاني" من أفراد عائلة العليان، فقتله حجيلان[٢]،

---

[١] منهم ناصر الشبلي، وعبد الله القاضي قتلهما سعدون، وقد أرسلهما أهل الجناح أحد أحياء عنيزة، ومنصور أبا الخيل، وثنيان أبا الخيل قتلهما أهل الخبراء، راجع تاريخ نجد لابن غنام ص١٥٣، وعنوان المجد ١/٧٥ ، ورجل من أهل الدين مكفوف البصر قتله آل جناح، وصلبوه، وعلقوه بعصبة رجله، وفيه رمق من حياة تعذيباً له، وهي مفصلة في حوادث عام ١١٩٦هـ في تاريخ نجد، وفي تحفة المشتاق حوادث عام ١١٩٦هـ، لابن بسام.

[٢] ومعه ابن حصين ، ابن غنام ، ص١٥٣ .

وهمّ بعقوبة المؤيدين الآخرين ولكنهم خنسوا عن المواجهة، وبقي حجيلان داخل البلد متحصناً ما يقرب من خمسة أشهر، فلما سمع سعدون دفوف الفرح بزواج حجيلان وهو في الحصار -وكانت سياسة من حجيلان- علم سعدون أنهم في منعة، وأنه لن يستسلم بسهولة، ففك الحصار وغادر إلى بلاده ماراً بالزلفي وسدير، فهجم على الروضة في سدير، وأحدث بلبلة في تلك الجهات، وخللاً في صفوف تلك البلدان وولائها، وبعد نهاية فتنة سعدون بن عريعر جاء دور ثويني بن عبدالله بن شعلان آل شبيب زعيم المنتفق، وقصد بجموعه الهائلة القصيم عام ١٢٠١هـ، فهجم على التنومة وقتل أهلها، ودمرها، ثم توجه إلى بريدة وحاصرها بجموعه تلك من المنتفق، وأهل الزبير، والمحمرة، وبوادي شمر، وبدأ بالقتال، ولكنه ما لبث أن فك الحصار، وغادر مسرعاً إلى بلاده حين ما سمع أن أمراً خطيراً يدبر

ضده يهدد زعامته[1] ، وجاء على أثره زعيم بني خالد الجديد عبد المحسن بن سرداح قاصد الانضمام معه لحرب بلدان نجد، ولكنه علم وهو بطريقه في "الدهنا" برجوع ثويني فكر راجعاً بما حمل، وباءت الخطة بالفشل الذريع[2] وهكذا تم للحكومة المركزية في الدرعية ضم القصيم، وإنهاء بعض المشكلات التي ينميها أعداء حكام الدرعية خارج تلك المناطق[3] .

---

(1) وكان سليمان باشا والي بغداد قد عين حمود بن ثامر زعيماً لبادية المنتفق، ففك الحصار، وعاد مسرعاً ليحارب بنفسه الذين أبعدوه عن الزعامة، ولكن الجيش تخاذل وتفرقت الجموع من حوله.

(2) وفي عام ١١٩٦ هـ نقض العهد أهل القصيم فيما عدا أهل "بريدة "، و"الرس"، و" التومة " قد بقوا على ولائهم للدرعية، وأما أهل الجناح، وأهل الخبراء فقد قاموا بقتل للعلمين، وللرشدين التابعين للحكومة المركزية في الدرعية بأمر من حاكم الأحساء، استجلوا بسعدون بن عريعر بعد ما نقضوا أمره في نقض العهد، فأعلن النفير، وجمع جموعه من بني خالد، والظفير، وبوادي شمر، ومن حضر من بوادي عنزة، وتوجه إلى القصيم، فحاصرت تلك الجموع بريدة، وأميرها آنذك من قبل الإمام حجيلان بن حمد، فاستعصت عليه، وبقي في حصارها أكثر من أربعة أشهر، ولما سمع أن حجيلان قد تزوج في حصارهم له عرف أنه في منعة منه فانصرف، وعاد أدراجه ناحية الزلفي، والسدير متجها إلى الأحساء.

(3) تاريخ نجد ، لابن غنام ، ص١٦٥ .

وكان أهل القصيم بصفة عامة من أحزاب الدعوة الموالين لها منذ قيامها عام ١١٥٨هـ ولم يترددوا، أو يتراجعوا عن مناصرتها، ولكن في بعض الأوقات يغلب الحكام المحليون على السلطة، فتكون السياسة الرسمية تابعة لسياسة الغالب، فيؤثر الحكام على المحكومين، كما جرى من عريعر بن دجين عام ١١٨٨هـ حينما استولى على "بريدة"، وولى عليها من قبله أميرها السابق "راشد الدريبي"، فقد أصبح الولاء الرسمي لحكام الأحساء تبعاً لولاء أميرها، ولكن عبد العزيز استطاع استرداد السلطة، فعاد الولاء الرسمي، والشعبي للحكومة المركزية بالدرعية بعد أن تولي الأمر حجيلان بن حمد بعد عبد الله الحسن الذي أخلص الولاء للحكومة المركزية في الدرعية حتى النهاية[1] .

---

[1] وإسناد الإمارة للأمير السابق "عبد الله الحسن" الذي قتل في معركة مخيريق عام ١١٩٠ هـ في غزوته مع عبد العزيز آل مرة جهات الخرج، تاريخ نجد لحسين بن غنام ، ص١٣٧-١٤٠-١٤١ .

ضم إقليم الخرج :

لقد قام قادة الدرعية ببعض الغارات المتقطعة على إقليم الخرج قبل الاستيلاء على الرياض، وكان من أبرز أمراء ذلك الإقليم "زيد بن زامل" أمير الدلم الذي وضع يده في يد دهام بن دواس في عدة مناسبات، ومن الطبيعي أن تتجه الأنظار إلى ذلك الإقليم لإنهاء المشكلات التي تصدر منه، لقد أرسل عبد العزيز له رسالة بعد سقوط الرياض أوضح فيها أن عليه الانضمام إلى الدرعية أو الحرب لكن زيداً اختار الأخيرة (الحرب). فوضعه حكام الدرعية على قائمة الأهداف الحربية الأولية، فجهز عبد العزيز حملة برئاسة ابنه سعود سنة ١١٨٨هـ ، واتجه إلى ناحية الخرج، فأحدثت تلك الحملة رعباً هائلاً لسكان الإقليم(١) .

ثم قاد عبد العزيز بنفسه جيشا إلى الدلم، وألحق بها خسائر فادحة، فاضطر زيد بن زامل إلى

---

(١) ابن بشر ، عنوان المجد ١/٦٣ ، وكذلك ١/٦٣ المرجع السابق .

البحث عن حليف يتقوى به ويصد العدوان، وطبعاً لا بد أن يكون أفضل المختارين وأنسبهم لنصرته حاكم نجران "حسن هبة الله المكرمي" الذي لم يزل يضمر العداوة لحكام الدرعية ودعوة الشيخ، ولن يتأبى زعيم مثل هذا عن مساعدته ضد حكام الدرعية، فكل الزعامات في المنطقة ترغب البقاء مستقلة تخشى سيطرة حكام الدرعية على منابر السلطة في كل الأقاليم، وبالتالي تجريدهم من سلطاتهم التي يعيشون من أجلها ويستميتون بالدفاع عنها، فكل الوسائل والغايات تصب في بؤرة واحدة، وتقتضيها قواعد المصالح التي لا تتخلف، وبالتالي فإن الوقوف في وجه تقدم حكام الدرعية أمر يفرضه التعاون المشترك بين تلك الزعامات الانفصالية، فاتصل زيد بن زامل بحاكم نجران، وأغراه بالأموال الطائلة، فقبل وهو كاره لوجود خلاف داخلي في نجران، وجهز الحملة اللازمة لقتال المسلمين، فجمع جموعاً من النجرانيين والدواسر، وغيرهم، وسار

بهم حتى وصلوا إلى الحائر -المكان الذي سبق أن هَزَمَ فيه جيش الدرعية[1] - فحصل بعض المناوشات مع أتباع حكام الدرعية هناك، ولكنهم في هذه الجولة لم ينالوا مرادهم، أو يظفروا بما أرادوا،

---

(1) وخلاصة ذلك أن جماعة يمانية هجمت على جماعة من "سبيع" في نواحي سدير، وسلبوا أموالهم، ولما علم عبد العزيز بن محمد وهو في "رغبة" طلب أهل اليمن حتى لحق بهم في "قذلة" فشد عليهم، وقتل منهم نحو خمسين رجلاً، وأسر مائتين وأربعين رجلاً، وأخذ ما معهم من الإبل والخيل والمتاع، وذلك في رمضان عام ١١٧٧هـ ، فشكا من نجا منهم إلى حسن هبة الله حاكم نجران فحشد جموعاً من أتباعه، واتجه بهم نحو الدرعية، فنزل في حائر سبيع، وحارب أهله، فتوجه إليه جيش الدفاع بحماس، وغرور إلا أنه مني بالهزيمة النكراء، وقتل أهل نجران منهم نحو أربعمائة رجل، وأسروا نحو ثلاثمائة رجل، وبعد المعركة جرت المكاتبة بين حاكم نجران وحكام الدرعية فتمت المصالحة بينهما بأن يطلق الأسرى مقابل إطلاق أسرى النجارين، وغرامات مالية يدفعها حكام الدرعية، وعاد إلى بلاده بعد خمسة عشر يوماً، ونفذ الاتفاق و لم يتجاوب مع دهام بن دواس، وابن زامل أمير الدلم، وأمير الأحساء الذين كاتبوه للإجهاز على حكام الدرعية، انظر تاريخ نجد لابن غنام ، ص١٢٠ - ١٢١.

ثم انسحبوا بعد أن تكبدوا خسائر في الأرواح والعتاد واتجهوا إلى بلدة ضرما، فدارت بينهم معركة هزم فيها الحلفاء وانسحبوا تاركين وراءهم جموعاً من القتلى والجرحى[١] .

فأصبح زيد بعد الهزيمة في موقف حرج لا يحسد عليه، فلم يجد بداً من النزول على رغبة حكام الدرعية والدخول في طاعتهم، فوفد إليها وأعلن الولاء لهم ، والطاعة، ولكنه لا يزال في وضع مريب، ينتظر فرصة يتنكر فيها إذا ما وجدها، فظل في سباق رهيب مع أفكاره السوداء ضد خصومه، لقد تحقق لديه أن منطقة نجد قد أصبحت تقع تحت سيطرة الدرعية، وتأثير قواتها المتنامية، فاهتز موقف المحاربين، وهبطت معنوياتهم أمام الفوارق التي تفصل بين قواتهم وقوات خصومهم، إذ لا تزال نتائج الجولات الماضية لصالح قادة الدرعية ما لم

---

[١] وذلك في عام ١١٨٩هـ، تاريخ نجد لابن غنام ، ص١٣٧ .

يستجد في واقع الأمر شيء قد يغير من مظاهر القوة، ففي كل عام تنحسر بلدان المجابهة وتقل القوى المعادية[1] .

وكانت حصيلة المعارك والاشتباكات التي دارت مع أهل الخرج بعد سقوط الرياض عدة معارك[2] ، وقد انشغل قادة الدرعية عن الجهات الجنوبية بإخماد مشكلات حدثت في الشمال "الشعيب والمحمل" ومدن وقرى الوشم.

ثم وقع في عام ١١٩٧هـ معركتان قتل في الأخيرة رأس الفتنة "زيد بن زامل" أمير الدلم، ولكن ابنه براك الذي حل مكانه لم يكن أقل خطراً من أبيه إلا أن فتنة حصلت في أسرة آل زيد، قتل فيها براك، وتولى من بعده تركي بن زيد، ولكنه هو الآخر قتل

---

(١) راجع عنوان المجد لابن بشر ، ص١/٦٤ .

(٢) معركة في عام ١١٨٨هـ، ومعركتان في عام ١١٨٩هـ، ومثلهما عام ١١٩٠هـ ، أما في عام ١١٩١هـ، فإن العدد قد ارتفع إلى ٣ معارك ، وكذلك في عام ١١٩٥هـ، المرجع السابق ، أحداث تلك الأعوام.

في عام ١١٩٩هـ، وفي آخر السنة في ذي الحجة أعلنت جميع بلدان الخرج، والأفلاج ووادي الدواسر ولاءها المطلق لقادة الدرعية[١] ، فقطع دابر المشاغبات، وإشعال الفتن، واكتمل إخضاع جنوب نجد في نهاية القرن الثاني عشر، والمتابع للأحداث التي سجلتها التواريخ في عهد الإمامين الكريمين "محمد بن سعود" و"محمد بن عبد الوهاب" أثناء توحيد بلدان نجد، ونشر الدعوة يرى العجب العجاب من سير تلك الأحداث الغريبة لأولئك القادة، وترددهم بين الطاعة والعصيان، والرفض والإذعان، فإذا حمل عليهم الإمام بقواته وظنوا أنه مصبحهم أو ممسيهم استسلموا وامتثلوا ودانت جموعهم، وإذا قفل راجعاً نكثوا العهد، وأعلنوا الحرب، وأسباب هذا التردد والمراوغة، قد يدركها الباحث لأول وهلة، فالزعماء والرؤساء يرفضون دون تردد الولاء

---

[١] المرجع السابق ، ١/٧٩ .

لزعيم آخر لأن الرضوخ والإذعان في حقيقته إبطال لزعامتهم وإلغاء لمكانتهم الاجتماعية بين أفراد عشائرهم، وكذلك البلدان الحضرية كل بلد ترغب أن تكون ذات كيان مستقل، فلا تخضع للبلد الآخر، وأحياناً نجد أن البلد الواحدة تخضع لزعامتين في آن واحد[١] .

أما العامة فإنهم يجرون وراء هؤلاء الزعماء طمعاً بالغنائم، وتمشياً مع مفهوم العرف القبلي السائد الذي يمنح رئيس العشيرة السيطرة التامة على أفراد القبيلة، وتنفيذ أوامره دون خيار، حتى أصبح الأفراد إمعات ليس لهم حول ولا طول، كما كان أعداء الدعوة يخوفون العامة بالتكاليف الثقيلة حين استجابتهم لدعوة الشيخ، والعقاب الشديد الذي قد يصل إلى الرجم والقتل والجلد، والأمر بإقامة الصلاة في كل يوم خمس مرات في المساجد، ومعاقبة المتخلف، والوضوء والغسل على المكاره في شدة

---

[١] المرجع السابق.

البرد، والصيام في شهر رمضان في شدة الحر، وغيرها من التكاليف التي لم يعتادوا عليها زمن ظهور الشيخ، وخاصة سكان القرى المنعزلة، والبلدان النائية، والرعاة من أبناء البادية ، لأن الإسلام قد عاد غريباً في تلك الجهات كما بدأ، مع أن الشيخ لم يأت بجديد، وأن ما قام به دعوة صريحة لتجديد عقيدة السلف الصالح، وإحيائها على بينة، وعلم من القرآن، والسنة النبوية، ولكن أعداء الدعوة يلجأون إلى تبرير رفضهم بما يشاؤون من باطل، أوحق يراد به الباطل، وبعد انتشار الدعوة بين الناس أصبحت قواعد الدين واضحة للجميع، فلم يستطع المعارضون تضليل الناس وصرفهم عن إعتناق الدعوة الإصلاحية التي قام بها الشيخ "محمد بن عبد الوهاب" بعد أن انتشرت في كل الأقاليم[١] .

---

[١] تعني شريحة كبيرة في المجتمع، وبالذات أصحاب الحرف اليدوية، والرعاة في البادية، والمنعزلين عن المجتمع في المناطق النائية، وجهل أبناء البادية المطبق آنذاك لا يختلف فيه اثنان.

مقدمة في ضم الأحساء :

ما زال حب الزعامة القبلية راسخاً في نفوس رؤساء العشائر، والإقليمية المحلية متأصلة في أفكار النجديين، والنزعة الاستقلالية تدور في أذهانهم، مما جعل الكثير منهم ينظر إلى توحيد الأقاليم نظرة دونية، لأن الانضواء في -نظرهم- تحت راية واحدة معناه القضاء على سلطة الشيخ، ونفوذه في عشيرته، كما أن الرئيس العشائري يأنف من الخضوع لأمير آخر يعتقد أنه في مستواه الاجتماعي، ثم يتحول إلى تابع يذوب في المجتمع الكبير، ويصبح فرداً من عامة الناس بعد السلطة والرئاسة، ويفقد المكانة الاجتماعية له ولأفراد أسرته، كما يفقد ما كان يأخذ من أتباعه مقابل تلك الرئاسة، وكان من ألد أعداء الدعوة، وأشدهم معارضة للتوحيد، والدمج هو دهام بن دواس أمير الرياض، حيث خاض مع قادة الدرعية أكثر من عشرين معركة خلال ثماني

وعشرين سنة، فقد فيها اثنين من أبنائه وأخاه وجمعاً من أقاربه، وكاد يفقد نفسه عدة مرات، كما مر تفصيل ذلك في الصفحات السابقة.

وكان أقوى من يهدد وجودها حاكم الأحساء الذي يشعر بالقلق إزاء ما أحرزته من توسع أفقي غطى مساحة شاسعة من بلدان نجد منذ قدوم الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلى الدرعية، واتفاقه مع الأمير محمد بن سعود، وتتابع انضمام البلدان بجيوشها إلى قوات الدرعية، إلا أن "حاكم الأحساء" كان يعاني من الخلافات الداخلية التي تهدد سلطته، ولم يتمكن من الدخول في حروب، وخاصة مع حكام الدرعية الذين أصبحوا في وضع دفاعي قوي.

ولما قضى على تلك الفتن والخلافات الداخلية، وأصبح في وضع يمكنه من الدخول في الحرب، جهز جيشا قوياً لغزو الدرعية، التي

يرون أنها تابعة لهم بحكم نفوذهم القديم، لأنهم يشعرون بالقوة حالياً، كما يخشون تفوقها فيما بعد، فاتجه بقواته، وعتاده، ورجاله إلى نجد، ومعه من انضم إليه من جيوش المعارضين لقادة الدرعية من نجد، فأرسل مع أولئك المعارضين فرقة إلى حريملاء، ولكن الجيش المتحد مع المعارضة لم يفلح في مهمته، فعاد وانضم إلى القوات التي يقودها الزعيم الخالدي "عريعر بن دجين" قائد الأحساء ونواحيه، وقصدوا الجبيلة، فاستعصت هي الأخرى عليهم، فاضطر بعد فشله إلى الانسحاب، وعاد أدراجه إلى بلده من حيث أتى.

ولكن هذه الغزوة تلتها غزوة "النجارين" التي كادت أن تخضد شوكة الدرعية، وكان النجراني "حسن هبة الله" مكرمي المذهب يكن للدعوة السلفية عداوة مذهبية عقائدية شديدة، فاتخذ استغاثة العجمان الذين يتصل نسبه بهم في يام،

حينما هجم عليهم "عبد العزيز بن محمد" لتأديبهم لأخذهم إبل السبعان الموالين لقادة الدرعية، فاتخذ حاكم نجران هذه ذريعة للقضاء على حكومة الدرعية التي تناصر الدعوة السلفية وتحتضنها.

فجاء بجيش جرار والتقى بقوات الدرعية في "الحائر" جنوب الرياض، وكانت الهزيمة على جيوش الدرعية، وقتل منهم مقتلة عظيمة وأسر منهم عددا، ثم تراسلوا بعد المعركة، وتبادلوا الأسرى، وأخذ النجراني ما اصطلحوا عليه من مال، وعاد إلى بلده قبل أن يأتيه خطاب حاكم الأحساء الذي يطلب منه البقاء حتى يصل إليه، للتعاون معه للقضاء على الحكم في الدرعية، فجاء حاكم الأحساء بقواته متأخراً، وحاصر الدرعية أكثر من عشرين يوماً، ثم عاد خائباً

منكسراً يجر ذيول الهزيمة، وقد قتل من أتباعه خمسون رجلاً [1].

ولم يزل حاكم الأحساء تراوده نفسه الأمارة بالسوء بغزو الدرعية والقضاء على حكم آل سعود فيها، فقد جهز جيشاً جراراً وتوجه به في عام ١١٩٢هـ إلى نجد، ونزل الخرج، ولكنه لما حل بالحمى طاف به طائف الخوف من سطوة الإمام، فطلب الصلح فأجابه الإمام، ولكنه نوى الخيانة والغدر، حينما سلك في طريق العودة طريق الشمال، وهذا يدل على الخيانة ونقض العهد، فنزل بنبان في العارض، وهو قريب من الدرعية، ثم رحل ونزل مبايض في مجزل قرب سدير، فأثبت بتحركه هذا أنه يريد الحرب ولا

---

[1] راجع تاريخ المملكة للدكتور عبد الله العثيمين، ص من ٩٤ إلى ١٠٣ /١، وانظر تاريخ نجد لابن غنام، ص١٢٣/١٢٠، وانظر عنوان المجد في تاريخ نجد لابن بشر، ص٤٨/١ .

يريد الصلح، إلا أنه تراجع عن المجازفة بحاله، ورجاله، والزج بهم تحت أقدام الجيش السعودي الباسل، فهاب مقابلة تلك الجيوش، ودخل الرعب في قلبه، وارتجت الأرض من تحت قدميه، وصاحت بأذنه نائحة الموت، فكر عائداً من حيث أتى، ولكن رحيله صادف حرا شديداً، وجواً صيفياً صعباً، وهاجرة محرقة، فشق عليهم مجابهة الحرارة المتقدة، فهلك الكثير من الماشية، وأصابهم ضرر عظيم أكثر من أضرار الحرب المنتظرة التي رحلوا من بلادهم يبحثون عنها، ولكنه لم يأخذ من هذا الفشل الذريع درساً، حيث عاد إلى غزو نجد حين طلب منه أهل حرمة وأهل الزلفي مساندتهم بالسطو على المجمعة، وكان فيها حامية مرابطة تابعة لعبد العزيز[1] .

---

[1] عنوان المجد، ص١/ ٧٠ لابن بشر .

فقدم "سعدون" بجيشه ورجاله ونزلوا وسط النخيل، وتحصن أهل المجمعة في قلعة البلد، وبنوا وسدوا أبوابها بالحجر والطين، وأقاموا في الحصار عدة أيام، فلما أنهكم الحصار، مالوا إلى الصلح مع الغزاة، ولكنهم تريثوا مهلة ينتظرون الرد من عبد العزيز إذ طلبوا منه المدد، وكانت الجيوش السعودية قريبة منهم، قد عسكرت في جلاجل، فأرسل إليهم مجموعة من الأشخاص الأشداء، فتسللوا بالليل من بين الجموع المحاصرة، واستطاعوا أن يصلوا إلى داخل القلعة بواسطة الحبال، فتسرب الخبر إلى "سعدون" فعلم أنهم في منعة منه، وأنهم لن يسلموا، ثم انصرف عنهم، وتفرقت الجيوش، وبقي أهل حرمة وحدهم يحاربون أهل المجمعة، ولكن بعد ما تكرر منه الاعتداء اتضح لحكام الدرعية أنه لن يهدأ له بال حتى يصل إلى قاعدتهم الدرعية، فاتجهت الأنظار إلى غزوه في عقر داره، حتى يكف عن اعتداءاته المتلاحقة، فجهز

الإمام جيشاً جراراً بقيادة سليمان بن عفيصان، وبعثه إلى جهات الشرق فوصلت الحملة إلى قطر، مجتازة أراضي بني خالد، ولما أنهى المهمة العسكرية في قطر، توجه إلى الأحساء وهاجم "الجشة" من قرى الأحساء، فكان حليفه النصر، ثم قفل راجعاً وهذه الحركة مجرد إنذار لهم، ثم سارت الحملة إلى ميناء "العقير" فأخذوا ما فيه، ثم أشعلوا في عشش المحاربين النار، وكانت هذه المناوشات من قبيل المقابلة بالمثل(١) .

وبعد سنة من هذه المناوشات التي قام بها القائد ابن عفيصان توجه سعود بن عبد العزيز إلى الأحساء بحملة يقودها بنفسه، فوافاه زعيم المنتفق ثويني بن عبدالله في أراضي بني خالد في الصمان، بعد هزيمته في وقعة الفاضلية "بالمحمرة" قرب سوق الشيوخ من قبل سليمان

(١) تاريخ نجد لابن غنام ، ص١٦٩ - ١٧٠ .

باشا بالبصرة، فجرى بينهم قتال انتصر فيه سعود وأخذوا ما معهم من الزاد والعتاد، ثم قصد بني خالد في الأحساء ليضرب تجمعاتهم في أراضيهم ولم يعزم عليهم لوجود عناصر منهم في جيش سعود وخشي أن تفسد القبلية مهمته فانصرف عنهم، ومر على بعض القرى وجردهم من ذخائر الحرب، وكلما مر على مجموعة منهم في طريقه نازلهم وكان يقصد بذلك إضعاف باديتهم وإخافتهم، ثم اتجه بحملته تلك إلى الأحساء نفسها حتى وصل إلى المبرز، فوقع قتال بينه وبين أهلها، ثم رحل إلى قرية الفضول في الشرق، فأخذ وقتل من أهلها من حاربه[1] .

وفي سنة ١٢٠٤هـ توجهت الحملة السعودية بقيادة سعود بن عبد العزيز ناحية الأحساء، وكان معه زيد بن عريعر الذي لجأ إلى

---

[1] عنوان المجد لابن بشر ، ١/٨٥ ، عبارة ابن بشر .

الدرعية، ومعه بعض بني خالد فوجدوا جموع بني خالد بقيادة عبد المحسن بن سرداح ودويحس ابن عريعر في جبل "غريميل" قرب الأحساء فنشب بينهم القتال، واستمر ثلاثة أيام، حتى انهزم زعيم بني خالد، وهرب عبدالمحسن ومن نجا معه إلى المنتفق، وتركوا ما معهم من أغنام، وإبل، ومتاع غنيمة لجند التوحيد.. وولى سعود زيد بن عريعر على بني خالد الذي قام بقتل خاله عبدالمحسن بن سرداح غيلة بعد سنة من توليه الأمر، وذلك أنه استدعاه عام ١٢٠٦هـ من المنتفق وأمنه، وحينما وصل اليه قام بقتله فأغضبت هذه الخيانة بني خالد على زيد، وتنكروا له.

وفي منتصف عام ١٢٠٧هـ غزا جيش التوحيد جهات القطيف بقيادة "سعود بن عبدالعزيز"، فبدأ بقرية "سيهات" فأخذها، ومنها

توجه إلى قرية "عنك" فسلمت، فصالحوه على مقدار الفرضة، ثم انصرف.

وفي السنة التي تلتها توجه سعود بحملة التوحيد قاصداً بوادي بني خالد التي تموج كالسيل الحائر في أراضيها، وكانوا قد نزلوا "الجهراء"، ولما أحسوا بتحرك سعود رحلوا قاصدين التجمع قرب منازلهم في الأحساء بقيادة براك بن عبدالمحسن، فتبعهم سعود على الأثر حتى "اللصافة"، فأخبر بتحركاتهم، ووجهتهم، فرصد لهم على ماء اللهابة والقرعا، وليس لهم مورد غيرهما.. وفي هذه الأثناء أقبلت الجموع يسبقهم مثار النقع كأنهم في يوم عاصف اشتدت به الريح، فاستقبلهم جند التوحيد وجيوش النصر بالتكبير والتهليل، ونازلوهم فلم يلبثوا حتى انهزم بنوخالد فهربوا مذعورين وتركوا وراءهم ماشيتهم وأمتعتهم وركائبهم وسلاحهم وكل ما يملكون،

وهرب براك بن عبد المحسن شريدا طريدا قاصدا المنتفق ومعه شرذمة من الخيالة، فهلك جنده الذين حضروا الوقعة ومن لم يمت بالقتل مات بالظمأ والجوع في تلك الصحارى القاحلة، وبعد وقعة "الشبط"[١] لم تقم لحكام الأحساء قائمة فأخافت هذه الأخبار سكان المنطقة، ودخل الرعب في قلوبهم، فتوجه سعود إلى الأحساء ونزل "بالردينية" في اللحيف، فكاتبه أهل الأحساء يطلبون المبايعة على دين الله ورسوله والسمع والطاعة، فنزل على أحد العيون قرب الأحساء، وخرج إليه أعيانهم، وبايعوه على السمع والطاعة، فهدم القبور، والقباب المقامة على الأضرحة، والمزارات، وأزال المشاهد، ورتب الدروس في المساجد، وبقي في منزله ما يقرب من الشهر، ثم غادره

---

[١] وتسمى هذه الوقعة وقعة الشبط وهو موضع معروف شرقي ماء اللصافة المذكورة، انظر عنوان المجد لابن بشر ، ص٩٨ .

إلى الدرعية، ولكن أهل الأحساء غدروا بعد ذلك، وخانوا العهد، وقتلوا المشايخ والمعلمين، وجرجروا جثثهم في الشوارع، وحاصروا أمير البلد المنصوب من قبل ابن سعود محمد الحملي، ولكن الأمير تمكن هو ومن معه من الهرب، وتولى الإمارة زيد بن عريعر، وسكن الأحساء.

ولما علم سعود بما حصل من أهل الأحساء، قاد حملة من حماة التوحيد في عام ١٢٠٨هـ، واتجه إلى الأحساء، ونزل في قرية "الشقيق"، فحاصرهم، وبعد يوم سلموا، وهرب من هرب من أهلها، ووجد مجموعة من أهل القرى مجتمعين في القرين فحاصرهم حصاراً شديداً حتى سلموا، ثم توجه إلى المبرز فالتقوا فيه بزيد ابن عريعر فنشب بينهم القتال، ثم انهزم زيد وهرب إلى البلد، ثم كرر "سعود" الهجوم على المبرز فجرت وقعة تسمى "بالمحيرس" التي

أصبحت من المعارك الفاصلة التي أنهت الحكم الخالدي في الأحساء، فانتشر جيش التوحيد في الأحساء يتجول كيف شاء، ثم أن براك بن عبدالمحسن وفد على عبد العزيز، وأخذ الأمان لأهل الأحساء، وبايع على السمع والطاعة، وولاه عبد العزيز الأحساء، ولكنه بعد عودته بأوامر الإمام عبد العزيز تنكروا له، ورفضوها، واستمروا بعصيانهم، وتقابل مع أبناء عريعر المجتمعين في "الجفر" و"الجشة" من قرى الهفوف، ولكنه استطاع هزيمتهم فهربوا إلى الشمال، وتولى الأمر، وأصبح من ولاة عبد العزيز، فدانت له الهفوف وقراها، وبايعوه على السمع والطاعة، وعلى الرغم من الهزائم المتوالية على أهل الأحساء والغلظة التي واجهتهم بعد تكرر خيانتهم عادوا إلى نقض العهد وإعلان الحرب[1]،

---

[1] وذلك عام ١٢١٠هـ .

فلما بلغ عبد العزيز نكثهم العهد، بعث اليهم إبراهيم بن عفيصان يتقدم حملة يقودها سعود بن عبد العزيز الذي ما لبث أن لحق به، ولما وصل الأحساء نزل "الرقيقة" وأمر باطلاق النار عند طلوع الشمس من كل البنادق فغطى دخان البنادق سماء الأحساء، وخاف أهلها وارتجت الأرض من تحتهم، خوفاً من بطش الجنود الحانقة عليهم مما جرى منهم من الخيانة، ونقض العهد، وقتل العلماء وأهل الدين الذين كلفهم عبد العزيز بالتعليم، وإقامة حلقات الذكر في المساجد، وخرج إليه أهل الأحساء في منزله ذلك، واستسلموا خاضعين لما يفعل بهم فأخذ كلاً بذنبه، واقتص من الفساق والمفسدين، وعفا عمن أراد العفو عنه، وأقام عدة أشهر يرتب الأمور وينظم المسئوليات، ويضع كل شيء في نصابه، واستعمل عليهم أميراً من عامتهم "تاجم بن دهينم"، ثم عادوا بأكاليل

النصر فوق الرؤوس، وعاد معه أناس من أعيان أهل الأحساء وكبارهم ضماناً لعدم الخيانة، ونقض العهد[1].

ومع أن بلدان "الأحساء" قد دانت لعبدالعزيز ودخل أهلها في طاعته بعد معركة الرقيقة إلا أن هناك عناصر مفسدة لا تزال متعلقة نفوسهم بالشغب، وقد كان من بقايا تلك العناصر "ثويني ابن عبدالله" رئيس المنتفق المبعد، وكان قد لجأ إلى عبد العزيز بعد اليأس من مساعدة بني خالد بقيادة زيد بن عريعر فأكرم عبد العزيز وفادته، وأعطاه إبلا وخيلاً وأموالاً، ثم عاد إلى الكويت ومنها إلى البصرة وألح على سليمان باشا والي العراق أن يوليه على المنتفق والبصرة، حتى يستطيع أن يقضي على حكام الدرعية الذين أكرموه وأعطوه العطايا الكثيرة، ولكن المريض

---

[1] عنوان المجد لابن بشر، ص١٠٥ ، عبارة المؤلف مع قليل من التصرف.

بمرض حب السلطة المزمن لا يرعى عهداً ولا ذمة، فطمع سليمان باشا بنشاطه وحماسه، وأراد استغلال هذا الشر الذي يتخبط في رأسه، ويضطرم بين حنايا ضلوعه للقضاء على هذه الدولة التي أذهله توسعها، ونشرها لمبادئ الدعوة التي تحاربها العناصر المغروسة على الشر والفتنة، فولاه على المنتفق وعزل "حمود بن ثامر" من زعامة المنتفق، وأعطاه جيشاً عظيماً، ثم تحرك بجيوشه وجموعه متوجهاً إلى نجد فعسكر في "الجهراء" قرب الكويت ما يقرب من ثلاثة أشهر يجمع البادية للتقوي بها، حتى جمع قوات هائلة من العدد والعدة والعتاد، واتجه بهذه القوات الضخمة الضاربة نحو القطيف فاهتزت الأرض بتلك القوات وغطى غبارهم شعاع الشمس فأخاف الناس وأرهبهم مسيره الحاشد، فلما علم عبدالعزيز بكيده وما قام به أمر جميع البلدان

بالنفير العام، واستعمل على هذه الحملة "محمد بن معيقل" فسار بهم حتى نزلوا "قرية" بالطف في بني خالد، وأمر عبد العزيز على البوادي أن ينزلوا على الموادر التي يحتمل أن ينزل عليها ثويني بجيشه، ثم أرسل سعود حملة أخرى من الحضر بقيادة حسن بن مشاري بن سعود، ولحقوا بالحملة الأولى وظل ثويني يزحف بتلك الحشود نحو القطيف والأحساء، فقد ارتحل من الجهراء، ونزل في جودة وأم ربيعة، ومنهما تحرك إلى "الشباك"، وفي هذا المكان أراد الله سبحانه أن يريح منه العباد والبلاد، فسلط الله عليه أحد المماليك وبادره بطعنة من الخلف بحربة قضت على حياته الشقية، وكان مقتله في أول عام ١٢١٢هـ فدخل تلك الجموع الخوف[١]، واستبد بهم الفزع والهلع، وأخفوا عن الجنود موته ودب

---

(١) ابن بشر ، ص١٠٨ ، عنوان المجد في تاريخ نجد.

في صفوفهم الخلاف، ثم إن براكاً زعيم بني خالد انحاز إلى القائد السعودي فتقطعت حبالهم، وانتقض جمعهم، وشرعوا بالتفرق فتبعهم جنود التوحيد، وأخذوهم شر أخذة، وطاردوهم إلى الكويت والبصرة وما نجا منهم إلا المخف، وبعد أن طهروا الأرض من العدو نزل سعود شمال الأحساء، وخرج إليه أهل الأحساء، وجددوا له البيعة والسمع والطاعة[1] .

ولكن سليمان باشا العامل التركي في العراق ما زالت تدور في رأسه خمرة التعالي والانتصار، والعداوة التي زرعها فيه الأتراك والعصاة الذين يلجأون إليه من نجد وقد أجلاهم

---

(1) وذلك في الرابع من شهر محرم بداية السنة الثانية بعد المئتين والألف قتله طعيس مملوك من عبيد الجبور من بني خالد، المرجع السابق عنوان المجد بعبارة ابن بشر وإيراده ، ص١٠٧-١١٨-١١٩، الفاخري الأخبار النجدية، ص١١٧ .

الإمام لسوء سلوكهم، وجمع ما يستطيع جمعه من الرجال والمعدات والأموال، قيل إن عدد الخيل يزيد على ثمانية عشر ألف، وسار بتلك الجموع وزيره "علي الكيخيا" ومعه المنتفق وزعيمهم حمود بن ثامر واتجه إلى الأحساء، ولما نزل الأحساء انضم إليه أهل المبرز والهفوف وجميع قراه فيما عدا عامل الإمام ومن معه الذين تحصنوا في كل من قصر "صاهود" بالمبرز وحصن الهفوف "بالكوت" وحاصرتهم كل الجموع ما يزيد على شهرين ولم يستطيعوا السيطرة عليهم، فقد سلطوا الرصاص والقنابل والمتفجرات "الألغام" وبنوا حوله مبان عالية حتى يستطيعوا الرمي في وسطه، ومع ذلك لم يتمكنوا، مع أنه لم يكن داخل القصر أكثر من مائة رجل من نجد، ثم إن الكيخيا ومن معه أصيبوا بالإحباط والفشل، وخجلوا من أنفسهم وجموعهم، ثم نكسوا على

رؤوسهم وجمعوا ما معهم وأحرقوا كل الذي لا يستطيعون حمله حتى لا يستفيد به عدوهم وعادوا إلى بلادهم والحسرة تملأ قلوبهم والأسى يعصر نفوسهم.

وكان الأمير سعود قد أعلن التعبئة العامة، وتوجه برجاله، وجيوشه لملاقاة هذا الغازي المعتدي، ولما علم برجوعه عزم على متابعته، وقبل تنفيذ ما عزم عليه جمع الله بينهم بغير قصد، فقد نزل سعود على "ثاج"، ونزل "علي الكيخيا" على "الشباك"، وهما قريبان من بعض، ثم رحل الكيخيا من "الشباك" وقصد "ثاج" يظن أن سعوداً قد رحل منه، فالتقوا في ذلك المكان وشد رجال التوحيد عزمهم، ولاقت تلك الجموع عدوهم، ولكن الكيخيا خاف من سطوة رجال التوحيد، وطلب المصالحة على أن ينجوا بأنفسهم، ويحقنوا دماءهم، فأعطاهم سعود ذلك، ورحلوا، ثم

إن سعوداً جاء إلى الأحساء، ونزل يصلح ما أفسده الغزاة المفسدون، ويعاقب الذين تواطئوا معهم، وناصروهم، وهكذا انتهت فتنة الكيخيا، وما كان يعد له من سنين ﴿إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله بالناس لرؤوف رحيم﴾[1].

---

[1] المرجع السابق الصفحات المذكورة، وقد فصل ذلك ابن بشر وبسط الكلام فيه ، الفاخري الأخبار النجدية ، ص١٣٠ .

ضم الحجاز إلى الحكومة المركزية

بعـد أن صـارت حكومـة الدرعيـة سـيدة الموقف في نجد، وأصبحت تملك زمام المبادرة، أصبح ضم الحجاز إلى القاعدة المركزية نتيجة حتمية لازمة ومتوقعة اقتضتها الأعمال المضادة، كرد أفعال مثلية، للمواقف العدائية، تجاه الدرعية، كما يضيف ضم الحجاز بُعداً آخر من أبعاد أهداف نشر الدعوة، إذ يعد من الأولويات الهامة لتأمين الحج، ووضع حد لتحكم الأشراف بالحجاج المسلمين كل عام، وقطع سلسلة طموحاتهم السياسية، وأطماعهم التوسعية، ومآربهم الاقتصادية في بلدان نجد، وإيقاف العمليات الحربية في تلك المناطق على بلدان نجد، وقطع دابرها، وتغيير نظرة الأشراف الدونية لأولئك القطاعات من السكان، فقد اتخذ الأشراف نجدا وبلدانها بمثابة المتنفس الطبيعي لترفهم، ومصادر الصرف لضغوط الرعية النفسية، والمنتزهات

التي يجلون بها الصدأ الذي يعلق في نفوسهم من طول المكث والاستقرار، فإذا ملوا من الراحة، وسئموا من الدعة، وزهدوا بالاستقرار والأمن، وأحسوا بتذمر الرعايا من القلة والعوز، فزعوا إلى غزو بلدان نجد، وحرب أهلها، لأنها في نظرهم أنسب الأهداف التي ينزعون إليها، والمصدر الأساس، لمؤنهم فالبحر من الغرب، والجبال الوعرة من الجنوب، وقد دان لهم سهلها، ومن الشمال صحارى قاحلة قليلة السكان والإنتاج، وقد تكون هذه العوامل سبباً في حشد القوات، وتجهيز الحملات إلى نجد، ولا ننسى أن الأستانة هي الأساس المحرك لتلك العمليات التي تدور، وتحاك ضد الدرعية، والدعوة السلفية.

ونظرة سريعة إلى أعمالهم العدائية خلال القرون "العاشر والحادي عشر والثاني عشر"

يدرك القارئ مدى معاناة النجديين من اعتداءات الأشراف على تلك المناطق.

فقد شنوا هجوماً في آخر القرن العاشر ٩٨٦هـ على الرياض في قلب نجد بجيش لجب جرار قوامه أكثر من خمسين ألف مقاتل فأمطروها بوابل من قذائفهم ورصاص بنادقهم ، وقتلوا أهلها، ونهبوا أموالهم، واحتلوا أكبر الأحياء في الرياض "معكال" وأسروا أعيان البلاد وأخذوهم رهائن إلى مكة، وسجنوهم وولوا عليهم حاكماً من قبلهم "محمد بن عثمان بن فضل"، يرهقهم بالضرائب، ويشق عليهم بالأحكام القاسية، وبعد ذلك بسنتين "٩٨٩هـ" قاموا بغزو نجد، فاحتلوا من بلدان الجنوب الأفلاج "البَديعْ " ومن بلدان الخرج "السلميَّة" و"اليمامة" وفرضوا عليهم ضرائب يؤدونها سنوياً، وولوا عليهم حاكماً من

قبلهم، ونفذوا في القرن "الحادي عشر" أكثر من عشر غزوات، على مختلف مناطق نجد[1].

---

(1) ففي عام ١٠١١ هـ غزا الشريف أبو طالب نجد، ووجه نشاطه جهة الشمال، وفي عام ١٠١٥ هـ غزا وسط نجد وقتل أهل القصب، ونهب أموالهم، وبلادهم، وعمل بهم أعمالاً تشمئز منها النفوس، وفي عام ١٠٣٢هـ ظهر، ووصل نشاطه إلى جهات الأحساء، حتى اجتمع بحاكم الأحساء وتبادل معه الرأي، وفي سنة ١٠٥٦هـ ظهر الشريف محمد الحراث في نجد، وقابله أمير "ثرمدا ".

وفي عام ١٠٥٧هـ سار أمير مكة زيد بن محسن إلى نجد، ونزل روضة سدير وقتل رئيسها محمد بن ماضي، وفعل فيها أنواع القبح، والفساد، وولى عليها واليا من قبله "رميزان بن غشام "، ثم زحف الشريف زيد إلى العارض، ونزل بنبان في بلدان العارض، ونهب العيينة، وأخذ منهم نقوداً وثلاثمائة حمل بعير من أنواع الطعام، وفي عام ١٠٨٠هـ خرج إلى نجد، واقتتل مع عدد من قبائل البادية، وقتل من الطرفين مقتلة عظيمة، وممن قُتل عدد من الأشراف، ومن بينهم زين العابدين بن عبد الله، وأحمد بن حسن بن عبد الله، وغيرهم، وفي عام ١٠٨٨هـ ظهر الشريف في نجد، وقتل غانم بن جاسر رئيس الفضول.

وفي عام ١٠٩٦هـ غزا زيد إلى نجد، وقصد القصيم، وهجم على بلد عنيزة، ودمر العقيلية "حي من أحياء عنيزة "، وهدمها، وفعل بأهلها أفاعيل عظيمة ("٤١" تاريخ ابن ضويان هامش).

وأما في القرن "الثاني عشر" فقد قاموا بعدة غزوات، منها الغزوة التي نفذها الشريف "سعد بن زيد" سنة ١١٠٧هـ حيث نزل ببلدة "أشيقر" فحاصر أهلها، ثم طلب مقابلة الشيخين حسن بن عبدالله أبا حسين، ومحمد بن أحمد القصير، فلما قدما عليه قبض عليهما وحبسهما.

وبعد ميثاق الدرعية أصبح موقف الأشراف أكثر حرجاً، وأشد حرصاً على القضاء على تلك الحركة الدينية، ودك معاقل الدرعية، وحصونها التي تساند الدعوة وتناصرها.

وكان شريف مكة يراقب بحذر تلك الانتصارات المتوالية لحكام الدرعية، ويجتر هزائمه المتتالية، ويمني نفسه بالنصر، والإطاحة بشموخ قادة الدرعية.

وقد أساء الأشراف إلى الحجاج النجديين عامة، وخاصة أتباع الشيخ "محمد بن

عبدالوهـــاب"، وبـــارزوهم بـــالعداوة، وســـجنوا البارزين، والمشاهير من علمـائهم سـنة ١١٦٣هـ وقد منعوا النجديين من الحج ما يقـرب مـن عشـر سنين من عـام ١١٨٦ إلـى ١١٩٧هـ، وهـذا بحد ذاته كاف لإرغام حكام الحجـاز علـى فتـح أبـواب مكة للحجاج المسـلمين مـن أي جنـس كـانوا، كمـا هيجوا الشريحة المثقفة في الحجاز وشحنوهم ضـد الدعـوة الإصلاحيـة والعقيـدة السـلفية، وحمـل الأشراف علماء مكـة علـى الفتـوى بوجـوب قتـال إمام الدعوة إذا أصر على أقواله ولم يعـدل عنهـا، وقد لجأوا إلـى هـذه الوسـائل الفكريـة العقيمـة لمـا فشلت المعارضة العسكرية، ولكـن تلـك الحمـلات المغرضة ضد الدعوة لـم تجـد أذنـا صـاغيـة، لأن الذين يقومون بـترويج تلـك الدعايـات مغمـورون، وليـس لهـم شـهرة علميـة، أو ثقـل دعـائي فـي الأوساط الفكرية، ففشـلت فشـلا ذريعـاً حتـى آلـت

تلك المساعي إلى الهزيمة النهائيـة، وعلـى الرغم من فشل كل هذه الحشـود والجهـود والمحـاولات، فقد عـاد مـرة ثانيـة لتجريـب حظـه فـي المنازلـة العسكرية التـي لـم تفلـح فـي التجـارب الماضيـة، ولكنه أراد أن تكون الورقة الأخيرة.

ولم يزل يسـتميل القبـائل ورؤسـاء العشـائر لمناصرته، والوقوف معه لحـرب حكـام الدرعيـة، ومجابهة الدعوة السلفية، حتى حشد قوات ضاربـة من مكة، وبادية الحجاز، وبوادي شـمر، ومطـير، ومن انضم إليهم، قوامهـا يزيـد عـن عشـرة آلاف مقاتل، ومعهم أكثر مـن عشـرين مدفعـاً، تحركـت تلك القوات من مكة، سيَّرها الشريف غالب بقيـادة أخيـه عبـد العزيـز بـن مسـاعد، متجهـة إلـى نجـد قاصدة الدرعية العاصمة، مقر الإمامين الكريمين، واجتياح ما يعترض طريقهم من البلدان، والبادية، بالفتح والتدمير، فلما تطايرت أخبار الحملة خـاف

الناس وارتفعت ضغوط أنباء الغزو الحجازي، وخاصة المناطق الواقعة في طريق الحملة، حتى أيقن الكثير منهم بالهلاك، والدمار الذي تخلفه الحروب الحاقدة، فكان أول مجابهة لهم في تلك الحملة منازلة قصر "بسام البردوني" في إقليم السر، ثم حاصروه أكثر من عشرة أيام، وكان من أقل الأهداف مقاومة، لا من حيث المنعة، ولا من حيث العدد إذ لا يزيد عدد المدافعين فيه عن ثلاثين رجلاً بمواجهة هذا الجيش اللجب المدجج بالسلاح، فلما أعياهم هذا القصر المتواضع تحركت تلك الجموع باتجاه الدرعية، ثم التقى الجيش المحارب بالمدد القادم من مكة بقيادة غالب نفسه، فهجم الجميع على بلدة الشعراء في عالية نجد، فتحصنت القوات المدافعة في القصر، فطوقه العدو من كل الجهات، وأخذوا يضربونه بالمدافع، وأنواع المتفجرات، والألغام، واستمر العدو يمطر

القصر بوابل كيدهم شهراً، فلم يظفروا بطائل، ولم ينالوا مأربهم، فمل المقاتلون معه، وعرفوا مقدار قواتهم بهاتين المحاولتين، فتأكدوا أنهم لن يفرحوا بالنصر وإصابة الهدف، بعد أن قتل من أفراد قواته في "الشعراء" وحدها خمسون قتيلاً، وكان عدد المدافعين لا يزيد عن أربعين رجلاً، فتسلل إلى تلك الجموع وباء الفشل، وفلَّ عزيمتهم التفرق الذي فشا بين أفرادهم، ثم عاد الشريف إلى مكة يجر ذيول الهزيمة والخيبة.[1]

وقد نزلت جموع مطير وشمر بعد عودتهم من هزيمة الشعراء في "العدوة"، مزارع ومباعل لشمَّر، فتناقلت أخبارهم الركبان، فأراد عبدالعزيز تأديبهم، وتفريق شملهم حتى لا يعودوا إلى تدبير عدوان آخر مع أي ناعق، فجهز جيشاً موازياً للعدو بقيادة ابنه سعود، وهاجم تجمعهم في

---

[1] المرجع السابق ، ص ٨٦ – ٨٧.

"العدوة" فانهزموا هزيمة شنيعة، وغنم رجال التوحيد عدتهم وعتادهم، وخسروا عدداً من زعمائهم، فأثرت فيهم هذه الوقعة، وأحدثت هزّت عنيفة في نفوسهم، فجمعوا فلولهم، واستنفروا من استطاعوا استنفاره، وإقناعه بإعادة الكرة والثأر لما حصل في "العدوة الأولى"، فطلبوا من سعود المنازلة فثبت لهم في مكان معسكره الذي يوزع فيه الغنائم في "العدوة"، وتصدى رجال التوحيد لهجومهم، وكان زعيم شمر "مصلط بن مطلق الجربا"، يتحدى ويقسم أن يطأ حصانه "صيوان سنعود" وكان حتفه في ذلك القسم، حيث خطفته يد المنون على أيدي رجال التوحيد الذين ترصدوا له، فانهزمت تلك الجموع، وفروا في البراري يطلبون النجاة، فطاردوهم حتى تأكدوا من تشتتهم[1] .

---

(1) وبعد هزيمة شيوخ شمر نزحوا إلى العراق ، وولى الإمام في شمر "محمد بن فايز العلي" من عبدة، المرجع السابق ، ص ٨٧ .

وبعد غزو هذه الجموع إلى نجد، وما جرى من هزيمة بوادي عتيبة، وشمر في "العدوة"، أصبح غزو مكة وشيكاً لأن حكامها أصبحوا في وضع مريب وتحركات مشبوهة، وقد تغير ميزان القوى، وما كان بالأمس مهاجماً أصبح اليوم مدافعاً، ولكن معاودة النظرة التوسعية، وأماني الانتصار ما تزال تخطر لهم على بال.

وقد سمع حكام الدرعية أن جمعاً من بوادي الظفير قد تجمعوا في "الحجرة" شمال الحجاز، فتوجه إليهم سعود في شعبان سنة ١٢٠٩هـ بحملة فشتت جمعهم، وفرق شملهم، وأنهك قوتهم، وغنم مواشيهم وركائبهم، وبعد شهرين توجه بقواته إلى "تربة" فحاصرهم وشدد عليهم الحصار، حتى صالحه بعض أهلها، ثم رجع في ذي القعدة عام ١٢٠٩هـ[١] .

---

[١] المرجع السابق ، حوادث سنة ١٢٠٩هـ .

وقد أصبح الشريف في سباق مع الزمن، وخاصة أن القوات النجدية قد بدأ ضغطها على حدوده ونواحيه، وقد طوقتهم، فجمع من لا يزال يناصره من البادية الحجازية، وأسند قيادة تلك الجموع إلى فهيد الشريف، فاتجه الشريف إلى بوادي قحطان الموالية لحكام الدرعية بقيادة "هادي بن قرملة" وهم في "ماسل" في عالية نجد، فجرى بينهم معركة انهزم فيها هادي بن قرملة وبواديه، وأشرف من نجا منهم على الهلاك عطشاً فسقاهم الله بالغيث من السماء، ثم هجم أمير شقراء[1] ومن معه على عتيبة في "مران" دون مكة، وسعود يحارب بقواته في الحجرة الشمالية بادية مطير، وعتيبة، فانهزمت تلك الجموع المعادية، وغنم رجال التوحيد ما معهم[2].

---

[1] محمد بن معيقل.

[2] وذلك في جمادى الآخرة سنة ١٢١٠هـ ، المرجع السابق ، ص١٠٤ ، وراجع ١/١٠٣ عنوان المجد في تاريخ نجد لابن بشر.

ثم أمر الإمام عبد العزيز محمد بن ربيعان وفيصل الدويش وجمع من البوادي بضرب تجمعات الأشراف بقيادة ناصر بن يحيى الشريف، فالتقى الجمعان في "الجمانية" فكانت معركة هائلة تصارع فيها الأبطال، فكثر القتل فيها وانهزم الشريف، وجنده وصار ما معهم غنائم تقسم بين جنود التوحيد بالموضع، وطارد القائد ابن معيقل بني هاجر حتى أدركهم في القنصلية قرب "تربة"، فأخذهم وانتهت تلك المعركة الفاصلة بنهاية أفكار الشريف التوسعية، وتحول إلى الدفاع المشوب بالخوف والحذر، والعجز فيما سمع أن هادي بن قرملة توجه إلى نجران، وأخذ البوادي هناك، ودانت له تلك الجهات[1] .

---

(1) المرجع السابق ، ص١٠٥ ، وانظر تاريخ نجد لابن غنام ، ص١٩١-١٩٢ .

وقد غاض الشريف موالاة أهل بيشة "للدرعية" والمبايعة لهم على دين الله ورسوله، ومبايعة "حمود بن ربيعان"، وبادية عتيبة، والدخول في طاعة عبدالعزيز، ومبايعة البقوم، فكانت هذه الهزائم المتوالية كافية بأن تجعل الشريف يشن هجوماً على بيشة، ويعيدها إلى نفوذه، ويحاصر "رنية" بجموعه، ثم ينزل "الخرمة"، فلما سمع سعود بالحشود على "الخرمة" سار إليهم، فالتقى الفريقان "بالخرمة"، وانهزم الشريف بجموعه، واستولى سعود على ما معهم من عدة وعتاد، وركائب وماشية، ونقود، وخسر فيها الشريف قواته وقوته، وطموحه، فكانت هذه الواقعة نهاية حربه وتمرده، فلم تقم له بعدها قائمة، ولم يلبث بعدها حتى طلب المصالحة، ثم

دخل في الطاعة، فكانت تعد من المعارك الفاصلة، وأذن لهم بالحج سنة ١٢١٢هـ[1] .

ولكنه بعد خمس سنين من الصلح نقض الشريف الميثاق، فانشق عليه وزيره، وصهره، عثمان عبد الرحمن المضايفي، وتركه، ونابذه، ووفد على الإمام عبد العزيز وبايعه على دين الله ورسوله والسمع والطاعة، فجمع قوات كثيرة العدد، ونزل في "العبيلا" قرب الطائف، فتوجه إليه الشريف بقواته، وجرى بينهم معركة لم ينل الشريف منها طائلاً، فنزل الطائف واستنجد المضايفي بالبوادي والحواضر، فتوجه المضايفي بتلك الجموع إلى غالب في الطائف، فتحصن

---

[1] المرجع السابق، ص ١١١ إلى ١١٣ ، وانظر تاريخ نجد لابن غنام ص٢٠٦، وقد أطال ابن بشر في هذه المعركة، وعدها من المعارك الكبرى الفاصلة (ابن بشر ص١١٣) وعدد المكاسب المادية التي كسبها جند التوحيد، وأن الشريف لم يغن عنه غروره، ومكابرته.

فيها، ثم إنه أفلت من تلك الجموع، وهرب إلى مكة، فدخل المضايفي الطائف، وفتحها بدون قتال فغنم ومن معه غنائم لا تحصى، واستعمله الإمام عبد العزيز أميراً في الطائف وعلى الحجاز، وبعد انتصاره وفتح الطائف توجه سعود قاصداً مكة فانتظر حتى انتهى الحج، ثم أحرم ودخل مكة، فلما سمع الشريف بدخوله دخله الخوف والرعب وهرب إلى جدة ومعه خواصه وأمواله وخزائنه، وكأنه أراد أن يقيم ويحتمي في جدة، فاستولى سعود على مكة وأعطاهم الأمان، ولما انتهى من نسك العمرة، وتوزيع الصدقات على أهلها، بدأ بهدم المشاهد الشركية والقباب المبنية على القبور حتى لم يبق في مكة منها شيء إلا هدم، وأزيلت معالمه، فأرسل الشريف إلى سعود يريد الصلح، ولكن سعوداً لم يستجب له، لأنه أراد بذلك الصلح فسحة من الوقت حتى يحصن جدة، ويقوي

دفاعاتها، فعين في مكة عبد المعين بن مساعد الشريف أميراً من قبله وغادرها، وبعد أن رتب حامية من جنوده البواسل في قصر من قصور مكة الحصينة[1] .

وفي أثناء عودة الإمام سعود إلى الدرعية، عاد الشريف غالب إلى مكة وأخرج منها منصوبه "عبد المعين" واستولى عليها، وبدأ يفكر بالثأر من حكام الدرعية، وعودة سلطته التي أصبحت في مهب الريح، ولكن الإمام سعود أمر ببناء قلعة في وادي فاطمة قريبة من مكة لإقامة الحامية السعودية للضغط على شريف مكة، وذلك في محرم عام ١٢٢٠هـ، وأمر قائده المحنك عبدالوهاب بن عامر "أبو نقطة" أمير تهامة وألمع وعسير بالتوجه إلى "جدة" لفتحها، ولكن الشريف

---

(1) عنوان المجد في تاريخ نجد لابن بشر ، ص١٢٢-١٢٣-١٢٤ ، وذلك عام ١٢١٧هـ .

أدركه في الطريق بين مكة و"جدة" في "السعدية" قبل أن يصل إليه المدد ومعه ستة آلاف مقاتل، وكان عدد جند الشريف يزيد على عشرة آلاف مقاتل، فالتقى الخصمان في السعدية على عجل، فانهزم الشريف، وجنوده، وولوا الأدبار إلى مكة، فغنم القائد السعودي، ورجاله ما كان معهم من سلاح، وعتاد، ومدافع، وأموال، وأثاث، وهربوا تاركين من الخوف ما خف حمله، وما غلا ثمنه طلباً للنجاة، وهم بأشد الحاجة إليه[1] .

لقد جنى الشريف غالب على نفسه، وعلى أتباعه وألحق الضرر بجيران البيت الحرام، وذلك بنقضه العهد، واختيار الحرب الخاسرة، وقد جرب الحروب مرات ومرات ولم يفلح، وذاق مرارة الهزيمة، ومع ذلك ما زال مصراً على عناده ومكابرته، لقد حوصرت مكة من جميع

---

[1] وقد استولوا على ما يزيد على ألف وخمسمائة بندق ، عبارة ابن بشر.

جهاتها، فقد أمر الإمام سعود بأن يتوجه رجال تهامة وبيشة وأهل الطائف وما يتبعها إلى مكة فطوقوها وأحكموا عليها الحصار، وكانت كل البلاد تعيش مجاعة خانقة، فهلك الناس، وأكلوا ما هب ودب، وبيع لحم الحمير، والكلاب، والجيف بأغلى الأثمان، وهذه من أكبر الجنايات التي اقترفها الشريف على سكان البلد الحرام، لقد جر الناس إلى الحروب على ما فيهم من الضيق، والمسغبة، والمجاعة. إن إصرار الشريف على عدم الخضوع للسلطان في منتهى الجهل والمكابرة، فكل البلاد قد دانت، واستجابت لداعي التوحيد، وجمع الشمل ووحدة الكلمة، وعلى الشريف أن يستجيب كغيره من البلدان، والولاة الذين بايعوا الإمام.

لقد بلغ السيل الزبى، وبلغت عند غالب الروح الحلقوم، بعد عدم تمكنه من الغلبة، فسقط

في يده، واضطر إلى طلب الصلح ومقابلة الإمام، وحدد المقابلة بعد نهاية موسم الحج، فأجابه الإمام، فبايع الشريف غالب عبدالوهاب أبا نقطة لسعود بن عبد العزيز على السمع والطاعة[1] ، وفكوا الحصار، ودخل قادة الدرعية ورجالهم إلى مكة، فحجوا مع الناس، وحج الناس ذلك العام، وسمحوا لحجاج الشام بالدخول، وأرسل "غالب" وفداً من قبله إلى الإمام سعود، وأتموا بنود الصلح، وقد سبقه أهل المدينة بالمبايعة للإمام سعود، والسمع والطاعة، بعد ما ملوا الحصار المضروب عليهم، فاطمئن الناس، ورخصت الأسعار وأغدق من ظل على قيد الحياة، ولم تنهكه سلبيات المجاعة التي مرت به[2] ، ولكن غالباً لا يزال يترنح في دوامة المراوغة، فبدأ

---

[1] انظر تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد إبراهيم بن عيسى، ص١٣١

[2] هذا تم في عام ١٢٢٠هـ ، انظر المرجع السابق ص١٤١ .

يحوك أمراً مريباً، جمع فيه من المحاربين من المغرب والشام، وادعى أنهم مكلفون من قبل السلطة العثمانية، وقد أمر بجمعها رئيس بعثة الحج الشامي عبد الله العظم، وبدأ بتحصين جدة بسور قوي، وصيانة الخندق القديم، وهذه كافية لكشف النوايا السيئة التي يبطنها، وفي السنة التي بعدها[١] حج الإمام سعود ومعه جموع عظيمة من مختلف المناطق، ومنع الحاج القادم من جهة الشام، وتركيا برئاسة عبد الله العظم باشا الشام، حتى لا يتكرر ما فعله غالب في العام الماضي، فلما يئس غالب من المدد المتوقع حضوره مع الحجاج اضطر إلى التسليم فقدم على الإمام، وبايعه على السمع والطاعة، وانتهت مسرحية المبايعة، والنقض عدة مرات مع أن غالباً لم يبايع قلبه، إذ سوف ينقض المرة الأخيرة، كما سنرى

---

[١] وذلك عام ١٢٢١هـ .

فيما بعـد، وأخـرج الإمـام مـن كـان فـي مكـة مـن عسكر الأتراك، ومن كان في المدينة مـن حـراس المسجد من الأتراك، والقـاضي الـتركي وكـل مـن يشتبه في ولائه منهم[1] .

[1] المرجع السابق، حوادث سنة ١٢٢١هـ.

أسباب نجاح قادة الدرعية في السيطرة
على معظم شبه الجزيرة العربية
وضمها إلى سلطتهم

كان من أهم عوامل النجاح اقتناع معظم السكان، والرعايا بدعوة شيخ الإسلام الإمام "محمد بن عبد الوهاب"، وموالاتهم لتلك الدعوة السلفية، ونصرهم لها بالقول والعمل، ومن ثم رفضهم حربها وضربها، وإذا ما أجبر الضعفاء على حرب ضدها دخلوا تلك الحرب بغير قناعة، والمحارب في هذه الحال يكون عالة لا يستفاد منه في مواجهة العدو، كما أن عدم اتفاق البلدان واجتماعهم على حرب قادة الدرعية تحت زعامة واحدة لاختلافهم فيما بينهم حول جدية حربهم، وتفاوتهم في درجات الولاء، والمنابذة والعداء، فلو كانوا يملكون القدرة على الاتفاق لما اتفقوا على مَنْ سيتولى السلطة قبل المعركة وبعدها، فكانت تواجه قوى متفرقة لا تجتمع على حربها مع أن معظم الرعايا والعامة يكرهون حكم زعمائهم المحليين الذين يظلمونهم، ويرهقونهم

بالضرائب، ويعرضونهم للقتل، والنهب والسلب، ومعاداة الآخرين، ويفرقون بينهم في المعاملات، وتسلط الحاشية، والمقربين من الزعيم على العامة، والأفراد الآخرين، وليس لهؤلاء الزعماء أهداف دينية، أو إصلاحية سوى السيطرة، وبسط النفوذ، ولذلك نرى الانقسامات السياسية، والتصدع الأسري، والاغتيالات الدامية في بيوت الأسر الحاكمة التي تعج بها صفحات التاريخ بسبب التنافس على السلطة، إضافة إلى أن لمكانة الزعيم الاجتماعية، وحجم أسرته وعراقتها في الحكم دور يضفي على الزعيم الهيبة والمتابعة وتجعل الآخرين يخافون سطوته وينقادون له طائعين، والخضوع لحاكم عريق أفضل من الخضوع لصعلوك متطفل على السلطة مثل دهام بن دواس مثلاً، ولما كان حكم آل سعود يسير مع الدعوة السلفية جنباً إلى جنب ويذود عنها انتصرت

بالعون، والتأييد الرباني ﴿ إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾، ولا يخفى أنهم يجاهدون في سبيل نشر الدعوة، وتصحيح العقائد، وإزالة ما طرأ عليها من شوائب، ومعتقدات خرافية فاسدة، وإقامة شعائر الدين، وتحكيم الشريعة الإسلامية، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وإقامة حدود الله.

وقد يلاحظ ثاقب البصيرة هجرة كثير من أفراد القبائل إلى العراق والشام وفلسطين وغيرها، حتى خلت الساحة من كثير من الأعيان هرباً من العمليات العسكرية المتتالية التي تدور في المنطقة، كانت هذه عاملاً من عوامل النجاح في بسط النفوذ[١]، وقد تعاون كثير من العناصر التي أيدت وناصرت الدعوة، وقامت بدور إيجابي كبير في محاربة الزعماء الذين يناهضون الدعوة وامتداد النفوذ السعودي، ولا يغيب عن الراصد أن صلاح

---

(١) تاريخ الدولة السعودية ص٢١ ، د/مديحة أحمد درويش.

الرعاة أنفسهم، وتمسكهم بالدين قولاً وتطبيقاً يحمل الأشياع على التفاني في مساعدتهم، ولا يشك أحد أن من كان بهذه الأخلاق الربانية والأخلاق الإنسانية، فإنه لا يحاربهم في ديارهم إلا فاسق، وكان لإقامة العدل بين الرعية بصرف النظر عن النوعيات والانتماءات مدعاة للسير في ركبهم والدفاع عن أهدافهم. ومسألة هامة كان حكام الدرعية يطبقونها على جمع الرعايا بالسوية وهي العفو عمن جاء تائباً ونادماً، وقبول اعتذاره ما أمكن وحفظ مكانته الاجتماعية بعد المبايعة وإكرامه، وبقاؤه على زعامة بلاده مع الصدق والوفاء، وتقديم جانب العفو والتسامح، ولا يلجأون إلى العقوبة إلا إذا اقتضتها الضرورة، فقد ضربوا أروع مثل في التسامح والتواضع والعفو عند المقدرة. ثم هذه الشرعية التي توزن بها معاركهم، ومقاتلاتهم فهم لا يحاربون إلا معتدياً، أو مهاجماً، أو ناكثاً للعهد، أو تاركاً لدينه مفارقاً لجماعة المسلمين، وقد أورد ذلك الشيخ في

أحد رسائله في الدفاع عن موقفهم من الحروب القائمة آنذاك[1] . وكانت القاعدة السكانية لا تؤيد الزعامة الإقليمية المحلية بقدر ما تميل نحو قادة الدرعية ودعوة الإمام السلفية الإصلاحية، وهذه من أسباب الانتصارات العريضة الساحقة لقادة الدرعية، وحقيقة الأمر أن المواطن العادي ليس له من الحروب القائمة ضد الدعوة، وقادتها أي مصلحة خاصة لأنه استقر في نفوسهم، بعد انتشار العلم والمعرفة أن وقوفهم ضد الدعوة وانتشارها محاربة صريحة للدين، ولهذا فإنهم لا يقاتلون بحماس وصدق، واذا ما أجبروا على الحرب وجدتهم يبحثون عن الملاذ والمهرب ولا يستعدون للمواجهة إلا لضرورة اقتضاها الموقف الآني، وهذه الاعتبارات

---

[1] قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب: وأما القتال فلم نقاتل أحداً إلى اليوم إلا دون النفس والحرمة، وهم الذين أتونا في ديارنا، ولا أبقوا ممكناً، ولكن قد نقاتل بعضهم على سبيل المقابلة "بالمثل" ، للمؤلف د/عبد ا الله العثيمين ، ص١٣٤ ، نقلاً عن روضة الأفهام لابن غنام.

من الأسباب التـي جعلت حكام الدرعية يستطيعون السيطرة على البلدان التي دخلت فـي طـاعتهم، وكل الذين بحثوا في تاريخ المملكة ركزوا على أن السبب هو عدم اتفاق البلدان وإجتماعها تحت زعامة واحـدة لحرب قادة الدرعيـة، واختـلاف مواقفهـم حولهـا، وتفـرق آرائهـم، والحقيقـة -وإن كـان هـذا مـن الأسباب- فإنـه ليس السبب الرئيس كمـا يظنـون، والسبب الأرجح هو أن الزعيم المحلي يقاتل بكل ما أوتي من قوة مادية ومعنوية، أما بقيـة الجنـود فـإنهم يقـاتلون بالقـالب دون القلـب لعـدم القناعـة بحـرب عدوهم، فتجـد أن عـدد المقـاتلين متقـارب، وكفـاءتهم متماثلة، والجيـش متكـافئ، ومـع ذلـك ينتصـر جيش التوحيد، وحماة العقيـدة، لأن فـي عقيدتهـم، وإيمـانهم أنهـم علـى حق، وأن عدوهـم علـى بـاطل، كمـا أن الكثير منهم يميـل إلـى حكـم آل سـعود، لأنهـم قـد تمرسـوا فـي الحكـم، ونـالوا خـبرة طويلـة، ودربـة عميقة، وسمعة، وشهرة سياسية معتقة.

أسباب تكليف "محمد علي" بالقيام بالحملة العثمانية على الدولة السعودية:

ويرجع المؤرخون تصميم السلطان العثماني على القضاء على الدولة السعودية إلى أمور من أهمها إيقاف تقدم الدولة السعودية، وتوسعها على حساب ولاياتها، ومرافئها، وثغورها، والحد من خطرها الديني، والسياسي الذي شق طريقه إلى الجهات المختلفة، والحد من نشاط الدعوة الإصلاحية، وإيقاف تغلغلها، وتوغلها في البلاد الإسلامية، حيث بلغ نشاطها تخوم العراق والشام واليمن، وأراضي عمان، وكان من أشد ما أثار غضب الدولة على الحكام السعوديين منع حجاج المحمل القادم من تركيا عبر الشام، وحجاج مصر بطريقة غير مشروعة، بالموسيقي، والمزامير، والرقص، والطرب، وإعادته دون أن يؤدي مرافقوه الحج وذلك عام ١٢٢١هـ، ومنه سلب السلطان لقب حامي الحرمين الشريفين الذي تقوم على أساسه مكانته الدينية بين العالم الإسلامي،

فهي ترى أن القضاء عليها، والتخلص منها يستعيد سيادتها على الحرمين الشريفين، وهيبتها في العالم الإسلامي ومركزها الذي فقدته، وزعامتها الدينية، وغيرتها على مصالحها في الخليج، وفي الحجاز التي أخذ يهددها الحكم السعودي، ويحد بالعصيان من سيادتها وكرامتها وهيبتها في نظر الولاة الآخرين، مع إلحاح الأشراف على الباب العالي على محاربة الحكام السعوديين الذين سيطروا على الحجاز، ووقفوا في وجه تطلعات الشريف أن يكون له مُلكٌ في الجزيرة العربية، واستعداء الدولة على حاكم نجد الذي سلبهم السلطة وهيمن على البلاد التي يرون السلطة لهم عليها ، مع وجود عناصر من المعارضين الذين طالهم ونالهم ظلم بعض الولاة وجورهم.

أما موضوع اختيار "محمد علي" (الضابط الألباني) الذي حكم مصر للتو بخيانة قذرة فإنه يرجع إلى عدة أمور منها: عجز الولاة في الشام والعراق عن القيام بهذه المهمة ناهيك بعجزهم عن الدفاع عن حدودهم معها. ومنها قرب مصر من الحجاز، وارتباطه به دينياً وتجارياً وسياسياً واجتماعياً، ثم إن الدولة قد ضاقت ذرعا بأطماع "محمدعلي"، وغطرسته وغروره، وتزايد نفوده السياسي، ونزعاته التوسعية، فقد أرادت بذلك إشغاله خارج الحدود بالمهمات الخارجية، حتى تصرفه عن الأطماع الداخلية التي تمس سيادتها مباشرة، وهي بإرادتها هذه تكسب أحد أمرين، إما القضاء على الحكم السعودي الذي أخذ يهدد سيادتها وقيادتها للعالم الإسلامي، ويقضي على مصالحها في المنافذ والمرافئ والثغور في شبه الجزيرة العربية، "وقمع ذلك العصيان الذي خدش

كرامة الباب العالي، وحد من هيبته وتعاليه"، أو التخلص من "محمد علي" هذا الطامع الذي يهدد الدولة في عقر دارها، وتصفية الجنود المشاغبين الذين يتقوى بهم، أو على الأقل إضعاف نفوذه.

وأما ترحيب محمد علي واستعداده للقيام بما أسند إليه من قتال المسلمين، وغزوهم في عقر دارهم، والزج بالجند تحت براثن السلاح الأبيض في متاهات لا يُسبر غورها، ولا تُعلم عواقبها، في صحارى قاحلة، ومساحات شاسعة، وظروف جوية صعبة قاسية، فقد تبين أن من أهدافه حين قبول هذه المهمة الطمع في الحصول على الأموال والمعدات العسكرية، والتخلص من العناصر المشاغبة في جنده من أتراك ومغاربة وألبان "أرناؤوط"، كما أن فيها إرضاء لطموحاته التوسعية، ونزعته التسلطية، وتطلعاته البعيدة، وغطرسته وغروره، مستغلا بذلك ظروف الدولة

العثمانيــة، وخلافاتهــا الداخليــة، ومشــكلاتها الخارجية[1]، كما عد هذا الأمر ثقة به دون غيره، فقد أراد إرضاء الباب العالي بتحقيق هذه الثقة، وهذا التشريف، ليكتسب شهرة تمكنه من السلطة، وترسخ أقدامه فيها، وحتى ينسب إليه في حالة نجاحه أنه قد قام بتحقيق ما لم يستطع تحقيقه الولاة الآخرون، كعامل العراق ودمشق، فيحصل على مكافأة يحقق بها أحلامه، وتطلعاته وتقوية نفوذه، وقد وافق هذا الأمر هوىً في نفسه لبغضه العرب والمسلمين، وعداوته الخفية التي أظهرها واقعه وحقده، وبشاعته، في القضاء على المماليك

---

(1) يقول الريحاني إن أهدافه تدور حول ثلاثة أمور: إبعاد الأفراد الألبان من جيشه، والتخلص منهم، وأخذ الأموال الطائلة من الدولة المخدوعة باسم هذه المهمة، دعاية له في العالم الإسلامي بصفته منقذ الحرمين، ومعيد الحجاج إلى أداء مناسكهم، الريحاني، تاريخ نجد الحديث، ص٧١-٧٢ .

الذين يعارضونه بخيانة قذرة، حيث قتلهم أبشع قتلة في مأدبة عشاء أعدها في القلعة، لتوديع حملة طوسون إلى الحجاز، فقد كان يُكِنُّ لهم عداوة قديمة بحكم أنهم الذين صدوا "هولاكو" وهجماته، ووقفوا في وجه تقدم المغول في موقعة "عين جالوت"[1] .

كما ساهم الأشراف في تأليب "محمد علي" على الدولة السعودية طمعاً في الحصول بواسطته على استقلال حكم بلادهم، ولا يخلو هذا الهجوم

---

[1] موضع بفلسطين بالقرب من بيسان هزم عندها التتار "المغول" على يد السلطان قطز سلطان مصر المملوكي، والقائد بيبرس البندقداري "الملك الظاهر ركن الدين" في معركة حاسمة (٣ سبتمبر ١٢٦٠م أوقفت تقدم التتار في المشرق الإسلامي ١٢٤٨م الموسوعة العربية الميسرة ١٣٨٨هـ) ، ص٤٥٣ .

من المؤآمرة بتشجيع من الإنجليز[1]، ودول الاستعمار الأخرى، والعلمانيين والغوغاء، لأن في القضاء على الحكام السعوديين هدم الكيان الإسلامي الذي تهدد طلائعه الكفر في ديارهم، حيث قد ركزت الحملة على قتل العلماء، ورجال الدين، ومع أنه لم يتضح الهدف الحقيقي الدافع لهذه الشراسة على المسلمين في شبه الجزيرة العربية، إلا أنه يستنتج منه ومن تصرف "محمد علي" أنه إنسان حاقد موتور، وظالم مستبد، وقد

---

[1] وقد يرى الثاقب البصيرة أن بريطانيا أحياناً تبارك انتصارات "محمد علي"، وأحياناً تنظر إليها بعين الحذر، وتخشى نشاطه فتؤيد خصومه عليه، وكذلك الدولة العثمانية وهذا التأييد أو الرفض من الدولتين محاولة للحفاظ على مصالحهما السياسة والاقتصادية.

- الذي سوف نستعرضه في الصفحات القادمة ٣٠ من الأحوال السياسية ، د/السلمان .

يكون في عقيدته لوث واشتباه لغدره بالمماليك، وقتله الأبرياء، والأسرى، وتخريب بلاد المسلمين، وملاحقة العباد في عقر دارهم، وإبادتهم، ونشر جنده في البلاد بين المسلمين، وتشجيعهم على الخراب والفساد، وهتك أعراض المسلمين بما يخالف قوانين الحرب، والفتك برجالهم، وتصرفاته الهمجية، وأخلاقه اللاإنسانية.

الفترة الحرجة في تاريخ الدولة السعودية الأولى أو النزع الأخير

لقد جيشت الدولة الظالمة الجيوش وزجت بهم في بلاد المسلمين غير عابئة بما ينتج عن ذلك من قتل وتشريد وإبادة وفساد ودمار وهدم لكيان المسلمين وإضعاف لسلطتها الآخذة بالأفول والزوال، لقد أرسل الحاقد "محمد علي" أسوأ ما عنده من الجنود الحفاة الظالمين والجيوش الجرارة والمدافع الهدارة والعتاد والسلاح والمؤن براً وبحراً بقيادة ابنه "طوسون"، وكان العدد الذي بعثه لحرب المسلمين يزيد على عشرة آلاف، وقيل إن عدد أفراده أربعة عشر ألف جندي، بما معهم من قوة وسلاح وجنود مدربة، وأموال ضخمة نهبها من فقراء مصر، وفلاحيها ليرشو بها الجهال وضعاف النفوس، فوصلت تلك الحملة إلى مدينة ينبع في آخر عام ١٢٢٦هـ، في شهر ذي القعدة في عهد الإمام المجاهد "سعود بن عبدالعزيز"، وقد اختار جدة وينبع لعلمه أنهما

مفتاحا المدينتين المقدستين فهرب عامل الإمام فيها "جابر جبارة"، حيث لا يستطيع مقاومة هذا الجيش الجرار بحامية قليلة العدد والعدة، ولكن الإمام الشهم كان قد استعد للقاء هذا العدو بعدد يزيد على ثمانية عشر ألف مقاتل من البادية والحاضرة، فنزل في الخيف بوادي الصفراء فوق المدينة المنورة على مقربة منها، وتهيأوا للجيوش التركية ، فالتقى الجيشان في هذا الموقع ، فكانت الهزيمة في اليوم الأول من القتال على الجيش السعودي حيث قتل منهم اثنان وثلاثون رجلاً، ولكن إعادة تنظيم الهجوم للجبهة السعودية جعل الهزائم تتحول إلى الجيش المعتدي الغازي ، ودام القتال ثلاثة أيام متتالية توالت فيها اللقاءات وتعددت صورها، ثم ولى الجيش التركي الأدبار هارباً بعد الهزيمة النكراء، وتركوا وراءهم أربعة آلاف قتيل، وعدداً من الجرحى والسلاح والعتاد

والأموال والذخائر والمدافع والرواحل والأمتعة، ولم ينج منهم إلا الخيالة، وولت فلولهم لا تلوي على أحد حتى وصلت إلى البريكة، ومنها ركبوا السفن التي أعدوها لهذا الغرض واتجهوا إلى "ينبع" مع قائدهم طوسون الذي تمكن من الهرب، وأقاموا في "ينبع" ينتظرون من الباب العالي الأوامر إما العودة أوالمدد، فغنم الجيش الصادق المدافع والسلاح والرواحل والأمتعة والمؤن والخيام، ثم اتجه القائد عبدالله إلى مكة وحج بالمسلمين، حيث كان الوقت في العشر الأواخر من ذي القعدة، والتقى بوالده الإمام سعود، فكانت حجة آمنة أدوا فيها شعائر الحج بأمن وأمان، وكسا الكعبة المشرفة بالكسوة اللائقة بقداستها وأنفق وتصدق وأهدى للشريف غالب، وتم الوفاق التام بين الإمام ، وعامله على مكة المكرمة وظن الإمام أن الجيش الغازي، قد اندحر بعد هذه

الهزيمة النكراء الكاسحة، وأنه لن يعود بعدها لقتال المسلمين.[1]

---

[1] انظر تاريخ نجد عبد الله فلبي ، ص١٣٢-١٣٣-١٣٤ ، بلغ عدد الجيش ثمانية آلاف، خمسة آلاف من المشاة والمدفعية سافروا عن طريق البحر على السفن في ١٢٢٦/٧/١٩هـ استخدموا ثلاثاً وستين سفينة ، وأما فريق الفرسان فقد بلغ ثلاثة آلاف فارس بقيادة أحمد طوسون، وقد سافر عن طريق البر عبر العقبة إلى ينبع -نقطة التجمع للقوات البرية والبحرية- ص٣١١-٣١٢ عبد الرحيم عبد الرحيم.

- وصل محمد علي جدة في ١٢٢٨/٩/١هـ ، ص٣٢٣ المرجع السابق، ذكر في الرحلة الحجازية أن القائد للجيوش السعودية في هذه المعركة هو عثمان المضايفي حاكم الطائف من قبل الإمام سعود ، ص٩٠ ،

- كما ذكر الحلواني أن عدد القتلى من الترك في معركة الخيف خمسة آلاف مسلح، وأن الجيش الغازي وصل عن طريق البحر إلى ينبع وآخر عن طريق البر بقيادة التركي صالح أغا سلحدار ، ص٩٠ ، الرحلة الحجازية.

المرحلة الثانية
من الحملة الأولى

مضى عام على الهزيمة المنكرة التي مني بها الغزاة المستبدون الظلمة، فجمعوا فلولهم، ولموا شتاتهم ولفوا شعثهم، وجاءهم المدد من مصر بقيادة أحمد نابارت، وانضم إلى أحمد طوسون الموجود في "ينبع"، واستمالوا ضعاف النفوس من القبائل وسفلة القوم بالمال والرشاوى والهدايا، فخانوا بلادهم وعصوا ولي أمرهم، والتفوا حول عدوهم وغزوا أهلهم وذويهم، ودلوهم على عوراتهم وثغراتهم التي يأتي منها العدو فاستولوا على "ينبع" النخل، وعلى وادي الصفراء وبلدان حرب، وسارت معهم جهينة وتبعتهم بوادي حرب لحصار المدينة المنورة، تتقدمهم كتيبة الاستطلاع في حدود ثلاثمائة فارس بقيادة عثمان كاشف فراسله أهل المدينة، وألحوا عليه بالدخول فدخلها في الليل ، فتحصنت الحامية

المرابطة داخل القلعة، وكان عدد أفرادها عشرة آلاف وقيل سبعة آلاف [1].

إلا أنه لم يكن للكثرة والشجاعة مكان في مثل هذه الحال، فقطع عنهم العدو الماء، وتراكمت القاذورات والأوساخ، وتزاحمت تلك الأعداد داخل أسوار القلعة الضيقة، فانتشرت بينهم في الحصار الأمراض والأوبئة، ثم حفر العدو تحت السور سرداباً، وحشوه بالألغام وأشعلوا فيه النار، فانهد على من فيه ومن بقي قاتلهم قتالاً شديداً، ولكن قتال المحصورين الضعفاء لا يجدي، فهلكوا جميعاً ما عدا قلة.

من لم يمت بالسيف مات بغيره

تعددت الأسباب والموت واحد

---

[1] فكان الفتح قبل أن يصل طوسون المدينة فاستقبلوه بالبشرى بالفتح ، عنوان المجد في تاريخ نجد أحداث عام ١٢٢٧هـ ، عثمان بن بشر.

فاستسلمت المدينة المنورة، وخرج من كان حياً من المرابطين بالأمان وبالهرب، وقتل في هذه المجزرة الظالمة الوحشية ما يزيد على أربعة آلاف رجل، وبقيتهم جريح أو مريض بالوباء الذي انتشر في المدينة نقله الغزاة إليهم، مع ضعف الحال، ونقص المناعة من سوء التغذية، وكان سقوط المدينة المنورة في ١/١١/ ١٢٢٧هـ، فأرسل طوسون مفاتيح المسجد النبوي لوالده "محمد علي" في مصر، ثم استمال الشريف غالب وعقد معه اتفاقاً سرياً، واتجه معه إلى جدة ودخلها دون مقاومة تذكر، ثم اتجه إلى مكة المكرمة فتركتها الحامية النجدية ودخلها، ومعه الشريف غالب فنزل طوسون قصر القرارة بمكة، وذلك في محرم ١٢٢٨هـ، ولما استقر بهم المقام، سارمصطفي باشا إلى الطائف، ومعه راجح الشريف وابن غالب ودخلوها بأمان، وصارت

ولاية تركية، وكان قد سبق أن أرسل فرقة للاستيلاء على الطائف، فتم لهم ذلك بتعاون من زعماء القبائل والمدن الذين تواطئوا مع الترك، وخانوا الدين والوطن، مما جعل سيطرة العدو على البلاد الحجازية أمراً سهلاً وميسوراً، من المدينة المنورة في الشمال إلى الطائف في الجنوب، وكان جيش الإمام بقيادة ابنه عبدالله قد عسكر في وادي فاطمة، ولكنه عندما أحس أن الجيش التركي يزحف إلى تلك الجهات توجه بالجند إلى الريعان، ثم رحل إلى "العبيلا" ، ثم إلى "الخرمة"، ونزل برجاله المجاهدين هناك، ثم أرسل عثمان بن عبدالرحمن المضايفي صهر الشريف غالب عاملهم على الطائف وما حوله، أرسله إلى بلدة الطائف لحمايته من الغزاة، ولكن المضايفي حين دخوله الطائف استوحش، وغادر

بأهلـــه وحاشـــيته متوجهـــاً إلــــى"رنيــــة" فــــي ١٢٢٨/١/٢٣هـ[1].

ولم يكن الإمام نائماً أو غـافلاً عـن اكتسـاح هـذه الجيـوش الباغيـة بـلاد المسـلمين واسـتباحتها ظلمـا وعدوانـاً، ولكنـه مؤمــن بـأن النصــر مــع الصـبر، وأن مـا يجـري علـى الخلـق بتدبـير رب العباد، ثم سار بجند التحريـر الصـابر مـن الباديـة والحـاضرة فـي مسـتهل عـام سـنة ١٢٢٩هـ إلـى جهات المدينة المنورة ليرأب الصدع، ويصلح ما أفسدته الجيوش ويستعيد ما استولوا عليه، وليؤدب الذيـن خرجـوا علـى الأئمـة، ومرقـوا مـن الطاعـة مروق السهم مـن الرميـة، فاتجـه إلـى "الحناكيـة"، فوجـد علـى المـاء قومـاً مـن الباديـة الذيـن مـالأوا "طوسون" فطاردهم الإمام فهرب القوم بإبلهم إلـى الحرة ، وتحصنوا بها، ثم حاصر عبد الله عسـكر

---

[1] المرجع ١٦٣/١٦٠ ، عنوان المجد في تاريخ نجد لعثمان بن بشر .

الترك الذين في القصر، وهم الطلائع إلى القصيم وعددهم ثلاثمائة فارس، وأسرهم، ثم أرسلهم إلى العراق اتقاء لشرهم، حتى لا ينضموا إلى الجيوش التركية المقاتلة مع "طوسون"، واستمر في طريقه إلى المدينة المنورة ليسترد البلاد واحدة إثر واحدة، ويؤدب الذين تعاونوا مع الترك وأعلنوا لهم الولاء والطاعة، فحام حول المدينة المنورة، ولم يدخلها، ومن مشارف المدينة المنورة، اتجه إلى وادي "الصفراء" -المكان الذي هزم فيه العدو- ثم خيم "بالخانوقة " في عالية نجد وأقام فيها، وفيها علم بوفاة والده الإمام سعود الذي وافته المنية ليلة الإثنين ١٢٢٩/٥/١١هـ[١] فحزن حزناً شديداً، ثم قام وخطبهم الشيخ علي بن الشيخ محمد عبد الوهاب خطبة مؤثرة حزينة وبعد الخطبة والبكاء على فقد الإمام، قام الشيخ

---

[١] المرجع السابق ، ص١٦٧ .

فبايعه بالإمامة وعلى السمع والطاعة، ثم قام الجيش فبايعوه على ذلك، ورجع إلى الدرعية وولى قيادة الجند أحد قادته[1] ، ولم تذكر المراجع المعاصرة بعد تلك الحوادث نشاط الجيش السعودي بعد استيلاء "طوسون" على المدينة المنورة في ١٢٢٨/١١/١هـ، ولم تشر إلى منازلة "طوسون" بعد سقوط المدينة إلى دخوله جدة، ثم مكة، ثم الطائف حيث يوجد فترة انقطاع سقطت يلاحظها الباحث، ويحس أن هناك حلقة مفقودة في قتال هذا الباغي المفسد.

وكل الذين رصدوا لتلك الفترة أجمعوا على أن تلك الفترة خصصت لتأديب الذين خانوا دينهم وأوطانهم وأمتهم وانضموا يحاربون المسلمين مع أعدائهم وكان محقاً في تأديبهم والقسوة في ذلك، وإن كان اللوم ينصب على الزعماء والرؤساء

---

[1] غصاب العتيبي، عنوان المجد في تاريخ نجد، عثمان بن بشر ١/١٨٠

الذين قادوا السذج لمساندة الفئة الباغية ضد أهلهم وذويهم، وقد ثبط عزيمة المجاهدين بعض الدعايات المغرضة، لأنهم يحاربون مسلمين مثلهم، ولا يختلف اثنان في أن قتال أمثال هؤلاء البغاة جهاد في سبيل الله لأنهم أتوا من أقصى بلدانهم يحاربون المسلمين في عقر دارهم، يقتلون رجالهم ويسبون أموالهم، ويستحلون نساءهم، ويحتلون ديارهم، ويخربون بلادهم، مع ما فيهم من فسق، وفساد وكفر ونفاق، فقد نقل عنهم من ثقاتهم الذين جرتهم الحرب راغمين، أنه لا يسمع في معسكراتهم الأذان، ولا تقام الجماعة والجمعة في اجتماعاتهم، وأكداس الخمور في مزادتهم وأمتعتهم، وأكثرهم مرتزقة كفار، واذا دخلوا بلداً من بلاد المسلمين في الحرمين، وفي غيرهما فعلوا فيه ما فعله التتار والمغول بقيادة "هولاكو"، يعتدون على الأعراض، وينهبون الأرزاق

والأموال[1]، هكذا كانت أخلاق الذين ساعدتهم القبائل على احتلال بلاد المسلمين.

لقد أعاد "محمد علي" الكرة، فأرسل جنوداً بأعداد كبيرة جهة اليمن بحراً وبراً فرست السفن في القنفذة، وكان فيها حامية يزيد عددها على الخمسمائة مقاتل فحاصروهم ورموهم بالمدافع والقنابل المحرقة، ثم أمنوهم وسلم أهل البلد، واحتلها العدو، وكان أمير تهامة وعسير "طامي شعيب"، قد توجه بقواته ورجاله البالغ عددهم أكثر من ثمانية آلاف مقاتل إلى الحجاز، فلما بلغه استيلاء الترك على القنفذة حوّل وجهته نحوهم فنازلهم وانتصر عليهم بعد قتال شديد

---

[1] ويروي المؤرخ أحمد علي أنهم لما دخلوا بدراً أخذوا نساءهم، وبناتهم فجاء أحد الضعفاء يطلب زوجته، لأن لديها أطفالاً قال له الذي هي تحت يده، حتى تنام عندي الليلة، وغدا أعطيك إياها ، نقلاً عن الجبرتي ، انظر كتاب آل سعود ص٥٠ ، أحمد علي.

وعـراك مريـر، وقتـل معظـم الـترك، وغنـم المسلمون من خيلهم أكثر من خمسمائة، ومـن المتاع والسلاح والرواحل والأمتعة ما لا يبلغه العد، وتوجه الفارُّون إلى السفن، هاربين إلى جدة، وتركوا الخيول والركائب، ووجد المسلمون قائدهم في الخيام فقتلوه[1] .

وكان عبد الله بن سعود قائد الجيش الذي أصبح إماماً للمسلمين بعد وفاة أبيه[2] ، قد أمر "غصاب العتيبي" أن يسير من منزله ذلك في "الخانوقة" إلى بلدة "تربة" ويكون أميراً للجيوش في تلك الناحية فسار بنحو عشرين فارساً فقدم غصاب تربة، وأقام فيها نحواً من سنة يقاتل الترك والبوادي حتى قدم عليه فيصل بن سعود أميراً على الجبهة من قبل الإمام الجديد عبد الله"،

---

(1) المرجع السابق ، ص١٦٦ ، نص وعبارة ابن بشر.

(2) المرجع السابق ، ص١٦٧ ، " "

وكانت المعركة في وادي زهران، وعدد الأتراك في تلك المعركة نحو عشرين ألفاً حاصروا حصن "بخروش علاس"، وقد اجتمع عليه طوائف من شعلان ومن دهمان ومن حابش وانضم إليه "طامي شعيب" بقواته وعددهم عشرة آلاف مقاتل، فحصلت الموقعة قرب "حصن بخروش"، وانهزم الترك هزيمة شنيعة، فغنم المسلمون خيامهم ومزادهم وبغالهم، وقتل من الأتراك مقتلة عظيمة تقدر بأكثر من ألف قتيل، وكان الترك قد ساروا من مكة والطائف، واتجهوا إلى هناك ، فكانت مقبرة الكثير منهم هناك، ولم ينج منهم إلا من هرب على الخيل[1].

ومن جهة ثانية فقد توجه الإمام عبد الله في آخر رمضان ١٢٢٩هـ إلى القصيم بجمع من المسلمين من البادية والحاضرة لتأديب الفارين من

---

[1] المرجع السابق ، ص١٧٩-١٨٠ ، نص وعبارة ابن بشر.

الطاعـة، والمـارقين عـن الجماعــة الذيــن خذلهــم الهوى وخدعهم الطمـع فنقضــوا البيعــة ونكثــوا العهد، وأعلنـوا العصيـان والتمـرد علـى السلطان فتعاونوا مع قادة البغـي والعـدوان، فشـوهوا وفـاء العربي وإخلاص المسلم وصدقه مع الله وتمسكه بالعهود والتزامه بالمواثيق، فخاب سعي المارقين، ورد الله بغيهم، وباءوا بالخسارة والفشـل الذريـع، فاستحقوا التأديب والتنكيل والعقاب الشديد.

فخيم قرب الرس مدة وأغار على جمع من المطران وأخذ ما معهم ، وفي ذي القعدة سار إلى الحجاز وأخذ في طريقه جموعاً من قبيلـة حـرب أدركهم في الحرة قرب جبل "غراب"، فقتـل منهـم رجالاً، ثم عـاد إلـى القصيـم، وأقـام خمسـة أشـهر حتى آخر ربيع الأول من عام ١٢٣٠هـ[١] .

---

[١] المرجع السابق ، ص١٨٢ ، ١٨٣ .

وكان قد جهز أخاه فيصلاً وسيره إلى بلد "تربة" ليقود الجبهة هناك فالتقى بالجموع السعودية المسلمة وأقام فيها، وفي السنة نفسها ١٢٣٠هـ جرت الموقعة المشهورة بين فيصل بن سعود ومعه جموع المسلمين، وبين الترك الغازية في "بسل"[١] ، وقد تابع ابن بشر خطوات هذا الجيش المكافح مرحلة بمرحلة وغطى تحركاتهم تغطية وافية باختصار فيقول نزل بلدة تربة، واستقرت رعايا المسلمين فيها فقدم "طامي شعيب" ومن معه البالغ عددهم نحو عشرين ألفاً، فلما أقبلوا على تربة أرسلوا إلى فيصل، وأخبروه الخبر، فخرج فيصل من"تربة" ومعه نحو عشرة آلاف مقاتل، فاجتمعت تلك الجموع كلها في "غزيل" –وهي بئر كبيرة واسعة غزيرة الماء قريب من بلدة "تربة" – ومن ذلك

---

[١] القصر المعروف قرب الطائف.

المنزل ساروا إلى الترك وقد اجتمعوا بعددهم وعدتهم على "بسل" فنازلهم المسلمون، ووقع بينهم قتال شديد، قتل فيه من الترك عدد كثير، فلما كان في اليوم الثاني أقبل محمد علي ومعه المدد الكثير، ودارت المعركة بين الفئتين، وثبت فيصل ومن معه، ولكن الهزيمة صارت عليه[1]، حيث قتل منهم نحو مائة مقاتل، وتفرق أكثر الجموع كل إلى بلاده، فتوجه فيصل ورؤساء قومه إلى "تربة"، وتفرق الناس عنهم، ثم أن "محمد علي" رحل من "بسل" وقصد "تربة" وخرج فيصل منها وتوجه إلى "رنية" وتفرق الأمراء في نواحيهم، ثم رحل فيصل من رنية إلى نجد ونزل الترك ببلدة "تربة" واستولوا عليها وأخرجوا من كان في ثغورها من المسلمين، ثم إن "محمد علي" وعساكره رحلوا من "تربة" في الحال وساروا إلى

---

[1] من قبل غامد، وزهران، ثم اتصلت بعرب عسير مع طامي شعيب.

"بيشة" ونازلوا أهلها حتى استولوا عليها وقراها كلها، ثم ساروا منها إلى "تبالة"[1]، فنازلوا شعلان أمير النفير وشمران في قصره في الثالث عشر من صفر، ورموه بالمدافع فثلموه، وقتل شعلان، وغالب من كان معه نحو مائة رجل، ثم سار إلى بقية قرى بيشة، وقد انهزم محاربو المسلمين فسلموا لهم، ولم يبق في بيشة لهم منازع، وبعث "محمدعلي" راجح الشريف إلى "رنية" بعساكر، فدمر ثغورها وبيوتها، وأشعل فيها النيران، ثم إن "محمد علي" وعساكره ساروا في وادي شهران فمروا بواكد والخميس، فكل من مروا به في مسيرهم أطاع لهم، ومنه إلى بلاد "طامي"

---

(1) هي البلد التي هدم المسلمون فيها "ذا الخلصة" زمن عبد العزيز بن محمد بن سعود، وهو الصنم الذي بعث إليه النبي صلى الله عليه وسلم جرير بن عبد الله البجلي، فهدمه، فلما طال الزمان أعادوه، فعبدوه.

ورعاياه من عسير وألمع ورفيدة وغيرهم، فأطـاع لهم أهل رفيدة، وثبت طامي ومن معه من عسـير وألمـع وبنـي الأحمـر والأسـمر واسـتعدوا لقتالـه ومحاربته، ورتب طامي جموعـه ورعايـاه فجعـل مع حوان عسكراً عند الطلحة، وجعل مع محمد بن أحمد خمسمائة رجل في الحصون، وتوجه طـامي بنفسه إلى بني مغيد، ثم أن "محمد علي" وعساكر الترك زحفوا إلى جهة الطلحة، فقاتله حوان ومـن معه، فانهزم الترك وتبع سـاقتهم أهـل عسـير إلـى حد الخيام، ثم تراجع الترك وثبتوا، ووقع في قـوم حوان خيانة وخذلان، فانهزموا وتزبنوا الجبال، ثم سـارت عسـاكر الـترك إلـى قصـور طـامي، ونازلوهـا، ورموهـا بـالمدافع حتـى أثـروا فيهـم، فخرج محمد بن أحمد واستأمن على نفسه، وعلـى أهل الحصون، وأن يتركوا لهم مـا فـي الحصـون من سلاح ومال ومتاع، فلما استولى "محمد علـي"

على الحصون هدمها، ثم أخذ من محمد بن أحمد عهداً على الطاعة، هذا وطامي قد تزبن بشرذمة معه في رأس الجبل المسمى "بهلل"، ثم أن "محمد علي" وعساكره انصرفوا مع "عقبة تيا" على تهامة قافلاً، وأرسل طلباً في ساقة طامي فأدركوه متوجهاً إلى حصن له في تهامة يسمى "مسلية" فيه له مال وسلاح وعدة، فلما وصلها أرسل إليه حسن بن خالد يستقدمه إلى صبيا البلد المعروفة هناك، فلما قدمها أمسكه وبعثوا به إلى "محمدعلي" فسيره إلى مصر، وصلب فيها، حتى استشهد، ورجع "محمدعلي" إلى مصر لما بلغه من اختلاف وقع فيه من الغزو، ورؤساء دولته، وفي مسير "محمدعلي" هذا إلى تهامة وابنه أحمد طوسون في المدينة النبوية يجهز العساكر إلى نجد وأرسل إلى أهل الرس، وأهل الخبراء وكاتبوه، فأرسل طوسون إلى العسكر الذي في الحناكية، وأمرهم

أن يسيروا إليهما فساروا إلى القصيم، وأطاع أهل الخبراء، والرس، فدخلها الترك".[1]

وقد ارتفعت معنويات طوسون بعد ما استجاب له أهل الرس، والخبراء، وظن أن البلاد كلها على وتيرة واحدة سوف تسلم له وأنها لقمة سائغة، فأسرع في استدعاء عساكره المقيمة في المدينة المنورة والحناكية للتوجه للرس والخبراء، ولكن الإمام عبد الله كان له بالمرصاد فاعترضه "بالداث" ولم يدركه، ثم سار في أثر قواته، وأدرك قسماً منهم عند "البعجاء"، فتحصن كبار عسكره في قصر البعجاء، فحاصرهم المسلمون، وتسوروا عليهم جدار الحصن فقتلوهم جميعاً، ويقدر عددهم بخمسمائة وعشرة، وأما أهل الشنانة ومن ناصرهم، فقد تحصنوا بالقلعة، وصمدوا للغازي،

---

[1] نقلاً عن عنوان المجد في تاريخ نجد ، عثمان بن بشر ، ص١٨٢ - ١/١٨٣ بعباراته.

وقاتلوه، وقتل من الترك عدد كثير، فلما استعصت عليه تركها، وعاد بالعسكر إلى الرس والخبراء.

ثم إن الإمام قرب من خصمه حيث نزل "بالحجناوي" بين عنيزة والرس، فضاقت الأرض بالعدو ذرعاً، وأحس بأنه قد وقع في قبضة المسلمين، فلجأ إلى المراوغة هرباً من المواجهة، وطلب الصلح عند ما أحس بالهزيمة، وأيقن بالهلاك، ولكنه كتم ذلك ولاذَ بالصمت وتظاهر بالانتصار والقوة، وأنه يريد حقن دماء المسلمين، ولا يخفى على الإمام أن الحرب لا تنفع فيها الملاينة، والمداهنة، والأناة بل المباغته، والمناجزة، وحسم النزاعات في حينها، ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً لم يكن الصلح في صالح المسلمين، بل إنه مراوغة لفك الحصار، وإنقاذ ما بقي من الجنود، والدليل على ذلك أنه قد لان، ووافق على شروط الإمام.

ثم رحل الترك في آخر شعبان ١٢٣٠ متوجهين إلى المدينة ثم إلى مصر، أما الإمام فإنه تتبع البوادي والحواضر الذين ظهر منهم التعاون مع العدو، وناصروه بالقول والفعل ونكل بهم، وقد توجه بعض الذين أوجعتهم الضربة إلى الترك في مصر وتذمروا من عقاب عبد الله الشديد لهم، وحرضوهم على معاودة الغزو مرة ثانية، ويقال إن فريقاً من الناقمين على الإمام ذهبوا شاكين متظلمين، وبعد مقابلة "محمد علي" طلبوا منه عدم التوقيع علي ورقة الصلح التي يحملها الوفد السعودي إليه، وأن لا يستجيب لمطالبهم، فرد بغطرسة، وتكلم على الوفد السعودي وأغلظ وقال "سأسير عليكم ابني إبراهيم فيهدم دياركم، حتى لا يبقى

فيها حجر على حجر"[١] ، وسميت غزوة "محيط ومحرش"[٢].

فزادت هذه الشكاوى من تصميم الدولة على القضاء على حكومة الدرعية لا لأن الدولة ممثلة في "محمد علي" تريد إنصاف المظلومين، كما يدّعون ، ولكنها اكتشفت من هذه الشكاوى أن هناك معارضين، وأن الجو مهيأ لهم في

---

(١) الريحاني ، ص٨٤ .

(٢) ويروى أن أحد الذين ذهبوا إلى مصر للاستغاثة بالترك قد أناخ راحلته في شارع فؤاد بمصر، وبدأ يقطع منها بالسكين وهي حيه ترغي، وتتوجع، فلما اجتمع عليه الجمهور، وسألوه السبب، طلب مقابلة السلطان ليسمع التعليل فأذن له، ثم شرح له مهمته وهي شكوى الإمام عبد الله، وهذه من المصائب التي تقاطرت على بلاد المسلمين، راجع عنوان المجد ابن بشر ص١٨٤-١٨٥-١٨٧ ، والمعلومات التاريخية منقولة من كتابه.

حالة القتال، ووجود أمثال هؤلاء الحـاقدين بيـن جيوش المسلمين، يعد نكبة داخل الصفوف.

الحملة الثانية بقيادة إبراهيم باشا [1]

(1) ابن زوجة محمد علي.

"محمد علي" العسكري الألباني، الذي تتلمذ على سيرة هولاكو المغولي، وعلى "جنكيز خان" صاحب المذابح الرهيبة، الذي ولغ بدم الأبرياء العزل، والشيوخ الركع، والأطفال الرضع، لقد اجتاح محمد علي البلاد المقدسة وبلاد المسلمين الذين يشهدون أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ويقيمون الصلاة، ويؤدون الزكاة، ويصومون رمضان، ويحجون، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويطيعون الله ورسوله، وينشرون دينه، ويجاهدون في سبيل أعلاء كلمته، قاتلهم في عقر دارهم لإرضاء أسياده، وإشباع نهمته، وكل من ولغ بالدم الحرام أعجزه الفطام، إن السلطان العثماني الذي كان قد أبدى رغبته في ساعة غضبته أن تدمَّر الدرعية، وينهى حكم آل سعود فيها، قد لا تصل إليه أخبار الطاغية المتسلط، وقد لا يعلم بما يدور في

إمبراطوريته الواسعة، وإنما هو تصرف فردي من حكام الولايات المستبدين أمثال "محمد علي".

يقول الرافعي أشهر مؤرخي مصر المتأخرين كانت الحملة الوهابية فرصة انتهزها "محمد علي" ليقذف بطوائف "الأرناؤط" المتمردة، وقد امتد طغيانها بمصر إلى الأصقاع النائية من جزيرة العرب[1] .

لقد رسخ في الذاكرة السياسية العثمانية "أن حكام الدرعية خطر على سيادة الدولة التركية، وأنه يجب التخلص منهم، وتدميرعاصمة ملكهم الدرعية" هذه القضية قد مرت في إحدى المناسبات في دائرة القطب التركي، وبقيت عالقة في الذهن تتكرر كل آن من حاكم إلى حاكم، إلا أنها لم تجد من يقوم بتنفيذها، فانبرى لها هذا الباغي وعدها فرصة العمر سنحت له، لممارسة

---

[1] نقله عنه الزركلي في الوجيز في سيرة الملك عبدالعزيز، ص١٣٥ .

هوايته الشاذة، ونزعته التسلطية، وغريزته العدوانية.

يروى أنه قد بدأ يعد لهذه المهمة العدة قبل أربع سنوات من الحملة الأولى، فقد أرسل جواسيسه إلى المملكة قبل ذلك بسنة، حتى أعطوه تقارير كاملة عن الظروف والأحوال، وحجم القوات والجيوش والعتاد، ثم أخذ يصنع البوارج والبواخر، ويجمع الذخائر بالمستودعات، ويغتصب الأموال من الفلاحين الفقراء، ويجمع الجنود، ويختار الفسقة والمأجورين والمرتزقة، وكانت تجربته في الحملة الأولى ناجحة في مفهومه الحربي، حيث فتح مكة، والمدينة، والحجاز بأكمله، وكانت خسائره في نظره تعادل أرباحه، ونجاحه السياسي والعسكري.

لقد ترك الجزيرة بعد أن تكبد آلاف القتلى والجرحى، وأكداس المؤن، والخيول والركائب،

والعتـاد، وصـرف المبـالغ الطائلـة علـى قتـل المسلمين الأبرياء دون أن يعود علـى دولتـه التـي يحـارب باسمها بطـائل أو نـائل، ولكنـه الغـرور والغطرسة والتسلط، لم يهـدأ لـه بـال، وحـاكم الدرعية ورعاياه ينعمون في بلادهم بعـد انسـحابه منها، لقد أتاحت له الحملة الأولى الفرصة لدراسة المنطقـة. ورصـد أسـرارها وأخبارهـا، ونقـاط الضعف التي يدخـل منهـا، وقد استفاد منها عدة نقاط هامة فاستثمر هذه المعلومات التي أضافت بعداً آخر لما استفاده بحربه الأولى، واسـتغل تلك النقاط أسوأ استغلال مما سهل له الفتك بالمسلمين وهزيمتهم، فقد عرف الجهات التي يغلب على رعاياها الاختلاف على إمامهم، كما عرف تهافت ضعاف النفوس على عطاياه وما يرشو به زعماء القبائل، وتنافس الزعماء على السلطة، والتنافر الحاصل بين المسؤلين، والإقليمية التي تسيطر

على كثير من السكان، إضافة إلى تفوقه في العدد والعدة، والعتاد، والتخطيط للمعركة، والتنظيم العسكري، إذ يقال في الحرب "الرأي قبل شجاعة الشجعان"، وكل هذه الاعتبارات تجعل القوة غير متكافئة، وعندما توفرت لديه هذه المعلومات، وعلم بحجم القوات السعودية، قام بتوزيع دوائر الحرب على أكثر من جبهة، وكان يحارب بترسانة من الأسلحة الثقيلة والخفيفة، وبتخطيط رهيب، وكانت حروب أبناء الجزيرة معه على طريقة الكر والفر القديمة، وعلى الطبيعة والسجية القبلية، مع أنه قد استطاع أن يزرع الثقة في نفوس جنده مستخدما التضليل لإقناعهم بشرف الجهاد، وأنه يحارب الخوارج المارقين من الطاعة.

وهكذا سقطت البلدان المقدسة مكة المكرمة، والمدينة المنورة، وسقطت بسقوطهما القوة

المعنوية، وهيبة المسلمين، كما سقطت تهامة، وعسير، وخسر المسلمون بسقوط تلك المناطق قوة بشرية هائلة، ومناطق شاسعة واسعة، فأصبحت نجد بعد ذلك مكشوفة للعدو الذي أخذ يزحف إليها، ويستطيع أن ينشر قواته في تلك الفيافي الواسعة التي يصعب على المدافعين فيها تغطية الجبهة، وخطوط المواجهة بكاملها، ولذلك لم يجد العدو خلال زحفه مقاومة تصده عما أراد، اللّهم إلا ما كان من أهل الرس الذين قاوموا الجيش الغاشم الجرار بكل قوة وبسالة، فكفروا عن الذنب الذي سلف، واستعادوا معنويتهم التي فقدوها، وزادوا بما أحرزوه في الجولة الثانية التي امتنعوا فيها على العدو، فكان امتناعهم أكثر فائدة من الأولى، لأن الأولى انتهت بالصلح وكأن شيئاً لم يكن عند معاودة القتال والاحتلال، يقول ابن بشر يصف تلك الحوادث: -

لقد جهز "محمد علي" جيشاً جراراً من مختلف الجنسيات بقيادة "إبراهيم باشا" ابن زوجته، فسار إلى المدينة النبوية ومنها إلى الحناكية، فنزلها وأكثر الغارات على من حولها من القرى والبوادي، وأخذ أموالاً وقتل رجالاً، فاجتمع عليه مرتزقة من حرب، ومطير وغيرهم، وعتيبة، ومن عنزة الدهامشة[1].

فأخذ يغير على بوادي نجد فيأخذ، ويقتل، فأمر الإمام عبد الله بن سعود بعض الحواضر من الوشم وسدير أن يتجهزوا إلى القصيم، فساروا إليها، ثم أمر مقاتلة أهل القصيم أن تجتمع فاجتمع الجيش بقيادة حجيلان بن حمد، ونزلوا "بالغميس" بين "الخبراء" و"بريدة" فأقاموا فيه نحو أربعة أشهر، ثم إن عبد الله تجهز غازياً من الدرعية ومعه من الحاضرة والبادية جمع غفير

---

[1] انظر عنوان المجد لابن بشر، ص١٨٧ .

خرج من الدرعية في ٢٠ جمادى الأولى ١٢٣٢هـ قاصداً الحجاز، ونزل قرب "الرس"، ثم انضم إليه "حجيلان" ومن معه، وساروا مع وادي الرمة، حتى نزل "العلم" يريد الغارة على البوادي الذين تعاونوا مع "إبراهيم باشا"، فهربوا إلى الحناكية، فلما علم بذلك عبد الله رجع من العلم ونزل "مسكة" فأقام عدة أيام، ثم رحل منها إلى "نجخ"، ونزل عليه، وأقام فيه أياماً، فبلغه أن عسكراً من الترك، ومعهم بادية كثيرة ساروا إلى "ماوية"[1] فتجهز عبد الله من "مياه نجخ"، واتجه إلى مكان نزولهم، فباغتوهم على مائهم، فحمل عليه المسلمون حملة سريعة، فأطلق الترك مدافعهم فهرب بعض البادية الذين ناصروا الإمام، ثم انصرف عبد الله ومن معه، ونزلوا قرب "جبل ماوية" تجاه الترك فثبت الترك، فأصبح المسلمون

---

[1] المعروف قرب الحناكية بينه وبينها يومين فنزلوا فيه.

فـي نطـاق مدافعهـم، ورموهـم بهـا فـأثرت فيهــم، فـانهزم المسلمون بسـبب سـوء اختيــار المــنزل، وهلك في تلك الهزيمة بين القتـل والأسـر والظمـأ نحـو مـائتي رجـل[1]، وهـذا أول وهـن وقـع فـي المسلمين، ثـم إن عبد اللـه قصـد نجخـاً، وحمـل المتاع، وسار إلــى القصيـم عـن طريـق "الخـبراء" ومنهـا إلـى "عنــيزة"، ونــزل فيهــا، ولمــا انهـزم المسلمون رحل "إبراهيـم باشـا" مـن الحناكيـة إلـى "ماويـة" واجتمـع بعسـاكره، ثـم رحـل منهـا بعـدده وعدتـــه وعتـــاده، ونـــزل "الـــرس" فـــي ١٢٣٢/٨/٢٥هـ، وظن بأهل الرس الظن السـابق، ولكنهـم ثبتـوا لــه، وحــاربوه حــرب الأبطـــال، فحـاصرهم أشـد الحصـار يقـول ابـن بشـر يصـف همومهم، ومــا آلـت إليـه محنتهـم: "وتـابع الحـرب عليهم في الليل والنهار، فأنزل اللــه السـكينة علـى

---

(1) المرجع السابق، ص١٨٨ .

أهل البلاد والمرابطة، وقاتلوا قتال المستميت، وصبروا صبر الأبطال، فكلما هدمت المدافع السور بالنهار بنوه بالليل، وكلما حفر الترك حفراً للبارود حفر أهل الرس تجاهه حتى يبطلوه، وطال الحصارأكثر من ثلاثة أشهر وعشرين يوماً، فأرسل أهل الرس إلى الإمام الموجود في "عنيزة"، إما أن يناجز الترك، وإما أن يأذن لهم بالمصالحة، فأذن لهم بالصلح بين الترك وبين أهل الرس على دمائهم، وأموالهم، وسلاحهم، وبلادهم، وجميع من عندهم، والمرابطة يخرجون إلى مأمنهم بسلاحهم، وبجميع ما معهم، فخرج المرابطة الذين بعثهم الإمام عبد الله لأهل الرس لمساعدتهم في حصارهم، وقصدوا الإمام عبد الله في عنيزة وقتل من أهل الرس والمرابطة في هذه

الحرب نحو سبعين رجلاً، وقتل من عسكر الترك ما يزيد على ستمائة رجل[1] .

ويروى أن إبراهيم باشا كان يردد هذه الكلمات أثناء حصاره الرس "يا رس يا عاصي، دوخت رأسي ، أقضيت ملحي ورصاصي".

ثم رحل منه الترك، ونزلوا في بلد "الخبراء"، فوقع الرعب في قلوب المسلمين، وتفرقت البوادي، وبعد عيد الأضحى خرج منها عبد الله وقصد "بريدة"، ونزل فيها، ثم تحرك الترك إلى "عنيزة" فسلمت وامتنع أهل قصر "الصفاء"، فأطلقوا عليهم قذائف المدفعية حتى انهد السور، فلما رأى أهل القصر أن البلد أطاعت له وأن سور القصر هدم عليهم طلبوا المصالحة. فصالحهم على دمائهم وأموالهم وسلاحهم، فخرجوا من القصر ودخله الترك ورحل المرابطة

---

(1) المرجع السابق ، ص١٨٩ نص عبارة ابن بشر.

إلى أوطانهم، فلما بلغ ذلك عبد الله وهو في بلد "بريدة" رحل منها وقصد "الدرعية" وأذن لأهل النواحي أن يرجعوا إلى أوطانهم، ثم توجه الترك إلى "بريدة" فسلمت، ثم رحل من "بريدة" وأخذ معه "عبد الله بن حجيلان" ورجالاً من رؤساء أهل القصيم، وكان إذا أراد أن يرتحل من أي بلد يأخذ من رؤساء أهلها رجلين أو ثلاثة رهائن، ثم نزل بلد "المذنب" وفتحها، ثم رحل من المذنب وقصد الوشم، ونزل بلد أشيقر والفرعة، ودخلوا في طاعة الترك، ويواصل ابن بشر متابعة الحملة الظالمة فيقول:[1]

فلما كان صبيحة الجمعة ١٢٣٣/٣/١٧هـ رحل من "أشيقر" بمخيمه وعساكره والإمدادات التي وصلت إليه فسار إلى "شقراء"، وكان أهلها قد خندقوا حولها فنزل أسفل البلد وشمالها، فخرج

---

(١) انظر المرجع السابق ، ص١٩١ .

إليه أهلها بعد هدم السور فساق عليهم الترك، فوقع بينهم قتال شديد في وسط النخيل وخارجها.

فقتل من الترك قتلى كثيرون وجرحى عديدون، فدخلوا البلد واحتصروا فيها فأطلقت المدافع قذائفها من فوق الجبل الشمالي على البلد منه رميا هائلا أرهب ما حوله من القرايا والبلدان، حتى سمعه من كان "بالعرمة" و"مجزل" وما حولهما، ثم أنزل المدافع من رأس الجبل وقربها من السور، وواصل عليهم إطلاق النار حتى قيل إنه رماها في ليلة بثلاثمائة حمل من الرصاص والبارود، حتى انهدم ما يليه من سورها، وقطع ما يليه من النخيل، وأهل البلد ثابتون، ثم يقول ابن بشر: "فحماهم الله سبحانه وكف أيدي الترك عنهم، وفي اليوم السابع من الحصار مالوا إلى المصالحة حرصاً على حقن دمائهم والمحافظة على أموالهم، وما احتوت عليه

بلدهم، وقد دخلت بلدان الوشم[1] في طاعته، حالما حاصر شقراء فبعث عساكره إلى ناحية "سدير" و"منيخ"[2]، فنزل "جلاجل" وفرق العساكر في البلدان، وأخذوا ما فيها من الخيل الجياد الثمينة وحنطة وعليقا للخيل، وأقاموا عندهم إلى أن أراد الرحيل من بلد "شقراء"، فرحلوا من سدير[3] إلى الوشم، وخرج من البلد بعساكره وأمرهم أن يخلوا بيوتاً للجرحى الذين جرحوا في حرب "شقراء" ففعلوا وأدخلهم عندهم، وهدم سور البلد، ودفن خندقها، وأقام عليها نحواً من شهر، ثم ارتحل

---

(1) الوشم قاعدته شقراء وأهم بلدانه ثرمدا، والجريفة، والقرائين، وأشيقر، والفرعة، والقصب، ومرات، ثم الحريق، الريحاني ص٢٧ .

(2) يشمل هذا الاسم المجمعة وحرمة وما حولهما.

(3) سدير قاعدته المجمعة، وبلدانه حرمة، ووشي، وجاري، وجلاجل، والتويم، والداخلة، والحصون، والجنوبية، والعطار، والجريفة، والعودة، وعشيرة، والخطامة، وتمير، والخيس، والروضة، الريحاني ، ص٢٧ .

منها، ورحل معه بعشرة رجال من رؤسائهم، وسار منها إلى بلد "ضرمى"، وأتى إليه مكاتبات من أهل "المحمل"[1] و"حريملا"، وأعطوه الطاعة[2] .

ولما علم الإمام عبد الله بن سعود بصلح أهل "شقراء" ودخول قرى الوشم وسدير والمحمل في طاعة الترك، أمر قافلة بقيادة سعود بن عبدالله أن يسيروا إلى بلد "ضرمى" لمساعدة أهلها أثناء الحصار مع أن مسألة التحصن في الحروب غير مضمونة، وخاصة إذا كان المداهم جيشاً قوياً مزوداً بالعتاد الفتاك، مثل جيش

---

[1] المحمل قاعدته "ثادق"، ومن بلدانه الصفرات، والبير تدعى كلها "اللهزوم"، ومن بلدانه أيضاً "رغبة" ، ودائماً يقترن بالشعيب، والشعيب قاعدته حريملا، وأهم بلدانه ملهم، وصلبوخ، وسدوس فيها آثار حميرية، الريحاني ص٢٧

[2] انظر المرجع السابق ص١٩٣ .

"إبراهيم باشا" ما دامت نهاية التحصن حتمية، ولكنها دائماً تكون الورقة الأخيرة.

فلما وصل الترك إلى "ضرمى" حدد المنزل للعسكر، بعد الجولة على البلد، ثم نزلوا شرقيها قرب قصور المزاحميات بينها وبين البلد، وحطوا ثقلهم وخيامهم فثارت الحرب بين الترك وبين أهلها، وحاربوه حرباً لم ير مثله وثبت الله أهل البلد. فلم يعبأوا به وطلب منهم المصالحة فأبوا، وكانت أقوى بلد بعد الدرعية رجالاً، وأموالاً، وعدداً وعدة ، فسلط الترك عليهم القذائف المدفعية، حتى هدموا ما والاهم من السور، ثم حمل عليهم الترك حملة واحدة فثبتوا لهم، وجالدوهم جلاد صدق، وقتلوا منهم نحو خمسمائة رجل وردوهم على أعقابهم، وبنوا بعض ما انهدم من السور، ثم حول الترك وجهتهم إلى جنوب السور، حتى صبيحة اليوم الرابع من الحصار

استطاع الغزاة هدم الأسوار، ودخول البلد بعد أن تكبد الترك عدداً كثيراً من القتلى، ولكن الأتراك خدعوهم بالأمان، ثم أعملوا فيهم السلاح، وأبادوهم عن آخرهم إلا من غاب عنهم، حيث قتل منهم أكثر من ثمانمائة وعددهم ألف ومائتين، وقتل من المرابطة نحو خمسين رجلاً، ونهبوا البلد وخربوها، وبقيت خالية من أهلها، أما النساء والأطفال فقد أجلوهم للدرعية مع أن الدرعية ليست بالمكان الآمن بعد اتجاه "إبراهيم باشا" إليها يقول ابن بشر: -

فلما نهب الترك البلد، وأخلوها من أهلها ارتحلوا عنها وساروا إلى الدرعية المحطة الأخيرة، حتى نزلوا في الملقى أعلى الدرعية يبعد عنها مسيرة ساعة للماشي، فلما استقر "إبراهيم باشا" ذهب لارتياد المكان كعادته والموضع الذي يريد النزول فيه، فحصل بينه وبين أهل الدرعية

قتال شديد، ثم رجع إلى المخيم، وأقاموا فيه يومين أو ثلاثة، وفي يوم الثلاثاء ١٢٣٣/٥/٣هـ رحلوا من الملقى، ونزلوا في "العلب" فانتشرت عساكره في تلك الجبال حول عدد من النقاط الدفاعية وتجاه جموع أهل الدرعية، وكان الإمام عبد الله قد رتب الجموع من أهل "الدرعية" وغيرهم في بطن الوادي وعن يمينه وشماله، وكل فريق قد عرف مكانه ومتاريسه ومعهم قواتهم ومدافعهم لا يفارق مكانه، ولا يغادره لأي غرض من الأغراض(١).

وكان الإمام بحكم خبرته الطويلة في الحرب قد رتب قوات الدفاع عن عاصمة الدعوة، وقاعدة الملك "الدرعية" آخر معقل للحكم السعودي، ويتكون جيش الدفاع من أهل الدرعية، وسائر الناس من مختلف المناطق في شبه الجزيرة

---

(١) انظر المرجع السابق، ص١١٦ .

العربيـة، وعيـن لكـل فريـق مـن المقـاتلين موقعـاً، وجعـل لهـم "مـذاري"، "ومتـاريس" وزودهـم بـالذخيرة، ومـا يحتـاجون إليـه مـن أكـل وشـرب، وجعـل علـى كـل موقـع رئيسـاً مـن كبـار القـوم وشـجعانهم، وبـاعد بينهـم قليـلاً بحيـث لا يصـل رصـاص هؤلاء إلى هؤلاء، ولا يدخـل مـن بينهـم العدو، وأحاطوا البلد بتلـك الدفاعـات علـى جـانبي الوادي، ووسطه وفي الجبال والمرتفعات، ثـم فـي وسط البلد وفـي قصـوره ونخيلـه، وكـانت الخطـة جيدة لو أنها اشتملت على منـافذ فـي حالـة اليـأس يتسلل منهـا المقـاتلون إلـى الخـارج فـي الغفـلات، وفي غلس الليل يستعيدون تنظيمهم ولا يبقون فـي مخابيهم ومحتصرهم طعاماً لسلاح العدو في نهاية الأمـر، وعرضـة للأسـر، والقتـل صـبرا، لأن التحصـن نتيجتـه حتميـة معروفـة ونهايتـه مؤلمـة، والذي يكون خارج الأسوار، يتمتع بالحرية أفضل

بكثير ممن هو في ظلمات الحصار، وضيق المكان، وليس لهم في النهاية إلا التسيلم، ثم القتل والأسر المذل المهين.

ولكن العدو الباغي قد أخذ لكل هذه الاستعدادات والمتاريس حسابها، وأعد لها العدة فما لديه من العتاد يفوق ما لدى المدافعين، ثم إن الإمدادات التي جاءتهم من مصر وجسورها المتصلة لايتعرض لها أحد من البحر الأحمر حتى قلب نجد، وهذه من أسوأ ما منيت به الجزيرة العربية من الخيبة، وأقل ما يسمى هذا التهاون والذل بالخيبة والخذلان ووصمه عار تلطخ تاريخ أبناء الجزيرة العربية الذين تركوا هذه القوافل الغازية المعادية تمر من بين ظهرانيهم ولا يعترضونها بقليل ولا كثير، بل فيهم من يساعد الغزاة، وينعت لهم الطريق، حتى لايضلوا، ويصلوا إلى رجالهم ليقتلوا عوائلهم،

وأطفالهم، ورجالهم، إن التخاذل والخيانة والمهانة التي ارتكبوها بحق أبناء وطنهم ودينهم صفحة سوداء في صفحات تاريخ أمة حررت البلاد الإسلامية، وفتحت الأمصار، إن هذه المهزلة التي مرت بهم فضيحة منتنة سجل التاريخ لأولئك الذين نكثوا البيعة، ونقضوا العهد، وتنكروا لأبناء وطنهم، ولحكامهم ولحكومتهم الوطنية، وقد قامت بواجبها الدفاعي حسب الاستطاعة، وما فعلوه مع الأجنبي الغازي من تعاون أو تهاون أو حتى الحياد، إنه عمل مشين ويؤسف له، فالدفاع عن البلدان ضد الغازي الأجنبي، واجب ديني، وواجب وطني،واجتماعي، لا يعذر القادر ولو كان من المعذورين عن الجهاد، ولو أن رجال الجزيرة الأشداء وقفوا في وجوه الغزاة، وقطعوا عنهم الإمدادات، واعترضوا لتلك القوافل، لأصبح الغزاة غدوة أوعشية نهباً للقتل والجوع، حيث إن

الذين يحاصرون الدرعية يقتل، ويموت منهم في كل يوم مئات، ولكن الخزي، والعار الذي لبسه أبناء البادية، والحاضرة الذين أيدوهم، وشجعوهم، وساروا بركبهم بالنهار، وهم يقتلون رجالهم، ويفتكون بهم بالليل، ويخربون ديارهم، ويهلكون أموالهم، وهم معهم يسيرون، وبمعاول العدو يهدمون، ولا يرف لهم جنب، أو تدمع لهم عين، وأبطالهم يقتلون صبرا، ويوضع علماؤهم في فوهات المدافع تمزق لحومهم وأجسادهم.

﴿إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا﴾، ﴿ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله﴾ ثم إن المقاتلين المرتزقة، وحثالة البشر، ليس لهم دين ولا مذهب، وقد قطعوا آلاف الأميال يسعون في الأرض فساداً، يقتلون الأبرياء، وينهبون الأموال، ويهدمون البلاد، ويخربونها

على مرأى ومسمع من أبناء البلاد، ولا يحركون ساكناً، بل فيهم من يؤيدهم ويسير في قوافلهم، إنه عار لا تطهره مياه البحار، ثم نواصل مع ابن بشر الخطوات:

فتبادلوا إطلاق القذائف المدفعية التقليدية، وتتابع هديرها فوق الجموع المحتشدة، فاشتعلت نار الحرب بينهم وارتفع في السماء دخانها، فاشتد القتال، وتقارعت الأبطال، والحرب بين الترك وأهل الدرعية سجال، وأقاموا نحو عشرة أيام والحرب بالمدافع والقذائف والبنادق، وفي اليوم العاشر جرت وقعة في المغيصيبي خارج البلدة شمال الوادي، حمل فيها أهل الدرعية على الترك، ووقع بينهم عراك، وقتال شديد، قتل فيه من الفريقين عدة قتلى، ثم معركة "شعيب الحريقة" خارج البلد جنوب الوادي، قتل فيها عدد من الفريقين، ثم تلتها وقعات ومقاتلات أخرى، ومنها

وقعة "غبيراء" المشهورة، وفيها خدع الترك فريق متاريس غبيراء، حيث جمع قائدهم خيلا في الليل وسط شعيب غبيراء لا يكشفه أهل المتاريس، فلما كان عند طلوع الفجر أرسل أهل النجدة مدداً لأهل الخيل التي وضعها بالليل، فوقع قتال شديد، ثم ظهرت خيل الترك من الشعيب خلف متاريس أهل الدرعية في هذا الموضع، فانهزم المسلمون ولاحقهم الترك فقتل منهم مائة رجل منهم فهد بن تركي بن عبدالله، وتراجع بعد ذلك أهل الدرعية، إلا أنهم لم يغادروا متاريسهم، وقتل من الترك مقتلة، ثم كانت وقعة "سمحة" في أعلى الدرعية جنوب الوادي، وانهزم أهل الدرعية عن متاريسهم المذكورة، وذلك أنه قد خرج من الداخل من أخبر الترك بعوراتهم ومداخلهم وكان أكثر ما قوى عزيمة الترك وشد ظهورهم وأسكن جأشهم في نجد، وفي البلدان الأخرى أناس مالؤوهم من

أهل نجد، ومن رؤساء البوادي ممن كانت نفوسهم ضعيفة، أو يضمرون عداوة وحقدا لحكام الدرعية -وهم قلة- ولكن الشر يربو ويزيد[1].

ثم يقول ابن بشر: فلما كان بعد وقعة غبيراء بمدة يسيرة جمع قائد الترك رجالاً من المتاريس المختلفة وضمهم إلى الخيالة لديه، وأمرهم بالهجوم على الجهة الجنوبية، وأمر العساكر الشمالية بالهجوم كذلك، ثم زحف بمن معه مع وسط الوادي، وأخذ يضرب البروج الكبار التي على جنبتي الوادي، وسلط الرمي على البرج الذي فيه عبد الله بن عبد العزيز وأخوانه ومن معهم، فثار دخان الحرب العظيم بين الطرفين فاشتعلت النار في الأرض والسماء، حتى تثلمت تلك البروج وهدم أكثرها فانسحب عبد الله ومن معه عن محاجيهم، ونزل الترك في

---

(1) انظر المرجع السابق ، ص١٩٨-١٩٩ نقلاً بتصرف واختصار.

موضعه، ثم حملت العساكر على الجبهة الجنوبية فثبتوا لهم وجالدوهم بالسيوف والبنادق، وقاتلوهم قتالاً هائلاً صادقاً، ولكن الترك جاؤوهم من خلفهم حينما انهارت الجبهة الشمالية، وحمل الترك على الجبهتين الشمالية والجنوبية، حتى انهزم أهل الدرعية من متاريسهم، واتصلت الهزيمة في المتاريس الشمالية والجنوبية، وتركوا أكثر المدافع والأثقال، وحصل مقتلة عظيمة بين الترك وأهل الدرعية، فلم يتراجعوا إلا عند السلماني على شفير الوادي، فوقف الأعيان، والشجعان، فجالدوا الترك جلاد صدق، حتى ردوهم على أعقابهم، وقتلوا منهم عدة قتلى، ثم جلس أهل كل مترس في الموضع الذي وقفوا فيه، فوضعوا المحاجي في بطن الوادي على يمنته ويسرته وبنوها بالحجارة، وأحكموها، وجعلوها محاجي، وحجاير، ونزل كل جمع من أهل الدرعية في محجى،

وحجيرة، وفي جانب الوادي من الجهة الجنوبية جمع آخر من المدافعية، وفي أعلى الجبانة مدفع كبير في رأس الجبل على شاطئ الوادي، وعنده جمع من أهل الدرعية وغيرهم، وكان غاية الحرب وشدته منه، وعليه، وأثر مدفعه هذا في الترك، وارتفع عدد القتلى فيهم وفي خيلهم[1]، ثم يردف ابن بشر قائلاً:

وأما عبد الله بن سعود وآل الشيخ ومعهم عدد من الرؤساء والأعيان والشجعان، فقد بنوا خيامهم بين البابين "باب سمحان" و"باب الظهرة"، وعندهم مدافع كبار وبقية البروج والمتاريس على ترتيبها المتقدم إلى أسفل الدرعية، وكل أهل المحاجي من "قليقل" إلى وسط الوادي كل محجى مقابله محجى من الترك مبني بالحجارة ملازمون له بالليل والنهار، ومن موضع عبد الله إلى أسفل

---

(1) انظر المرجع السابق ، ص١٩٩-٢٠٠ نقلاً بإضافات واختصار.

الدرعية فليس فيه تجاههم متاريس للترك إلا قليل، ولكنه يقع عندهم قتال شديد في غالب الأيام على من "بالرفيعة" ومن حولهم في "شعيب قْرَى عمران"، فمرة يسير إليهم الباشا بعساكره ومرة تسير إليهم العساكر وحدها، وهم في هذه المواضع والمتاريس حفاظ لتلك الناحية، ولما انهزم أهل الدرعية من متاريسهم التي عند "سمحة" هرب من البلد عدة رجال ممن أهلهم خارج الدرعية، ثم رحل الباشا وعساكره عن منازلهم المتقدمة، ونزل بنفسه وأثقاله ومدافعه ومخيمه وحاشيته وكثير من عسكره في الموضع المعروف بقرى "قصير" شمالي البلد، ورحل قائد الجند من موضعه الذي هو فيه من الجهة الجنوبية، ونزل أمام محاجي أهل الدرعية الجنوبية وفرقوا عساكرهم على البلد، وبنوا محاجيهم أمام محاجي أهل الدرعية وأحكموها

بالحجارة وقربوها منها، فثار بينهم الحرب الهائل، الذي لم ينقل مثله، وصار في كل يوم ووقت قتال مستمر ودائم بالغدو والآصال، وتضاربوا من المحاجي بالبنادق والسيوف، وتطايرت القنابل فوق الرؤوس، فصبر أهل الدرعية ونزل عليهم الثبات، وقاتلوا الترك حتى ملأوا فجاجها من الأموات، فمرة يحملون على الترك في محاجيهم، ومرة يحمل الترك عليهم، ونار الحرب مشتعلة دائماً في وسط المحاجي وجنوبها وشمالها وفي كثير جهات البلد، فاذا رأيت في موضع حرباً رأيت في الموضع الثاني مثله، وفي كل وقعة بينهم والغلبة فيها لأهل الدرعية على الترك إلا قليلاً، ولكنهم إذا قتل منهم الف أتى بدلهم ألفان، فتتابعت العساكر من مصر إلى الدرعية في كل أسبوع وشهر يأتي من مصر عسكر ورحلة وقافلة من الطعام والأمتاع، وما ينوب تلك العساكر، فلما

طال الحصار كثرت الإمدادات من مصر للترك، وأهل الدرعية كل يوم ينقصون وذلك بتدبير الحي القيوم، واستمروا في تلك المحاجي قريب ستة أشهر، وصار في تلك المدة وقعات عديدة لايحيطها العلم، ولا يدركها القلم[1]، ثم يقول:

ولما وقف أهل الدرعية عند "السلماني" بعد انهزامهم من متاريس "سمحة" ترسوا فيه ثم حملوا على الترك في "السلماني" ووقع بينهم قتال شديد قتل من الترك قتلى كثيرون وأخرجوهم من دار "السلماني"، ثم كان فيه عدة وقعات، ثم أن الترك أرادوا أن يحملوا على المتاريس الجنوبية قبل أن يعمل أهل الدرعية المحاجي، فجرت وقعة حصل فيها قتال شديد من العصر إلى بعد العشاء الآخرة، ثم وقعت "البليدة" في الجهة الجنوبية، وقتل فيها من أهل الدرعية عدة قتلى، وقتل من

---

(1) المرجع السابق ، ص٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ .

الترك مقتلة، ثم حصلت وقعة أخرى عند البليدة، حمل الترك فيها على أهل الدرعية في متارسهم، واستولوا عليها واستمر القتال الشديد من بعد الظهر إلى بعد العصر، ثم حمل عليهم أهل الدرعية فأخرجوهم من المحاجي، وقتلوا من الترك عدة قتلى، واستولوا على سلاح قتلاهم، ثم جرت وقعة عظيمة في "شعيب قليقل" في الجهة الشمالية، حمل الترك على أهل الدرعية فيه، فثبتوا لهم، وجرى قتال، وجلس الترك وترسوا أمام متارس أهل الدرعية، وقتل عدة قتلى من الفريقين، ثم أن قائد الترك بعث خيلا إلى بلدة "عرقة" أسفل الدرعية، وحصل فيها قتال شديد قتل من أهلها نحو ثلاثين رجلاً، وهربوا منها إلى الدرعية، واستولى الترك عليها وأشعلوا فيها النيران وتركوها، فكانت هذه الحاميات الدفاعية تواجه أشكالاً من العدة والعتاد الهائل والرجال

المدربين الأقوياء، ومع ذلك صمدوا وظلوا ثـابتين أمام العدو، فصـارت عـدة وقعـات ومقـاتلات فـي جميع جهات الدرعية لا يحصيها التعداد ولا يعلـم عدها إلا رب العباد، ولما كان وقت نضوج ثمـرة النخل، وقبل موسم الصـرام أرسـل عبـد اللـه إلـى بلدة عرقة مائة رجل وجلسوا فيها ليحفظوا ثمرتها من عبث العدو، فبعث إليهم الغزاة خيلا من الترك وطردوهـم، ثـم سـار إليهـم القـائد بعسـاكر كثـيرة، ومعـه أمـير الريـاض نـاصر بـن حمـد بـن نـاصر العائذي، ومعه عدة رجال من أهل الرياض وأهـل منفوحة وأهل الخـرج وغـيرهم، وكـان الباشـا لمـا طال عليه الحصار أشار عليـه أنـاس مـن رؤسـاء أهل نجـد مـن الذيـن سـاعدوه أن يبعـث إلـى أهـل البلدان والنواحي، ويأخذ من كل بلد رجالاً يقاتلون معه فـي الدرعيـة، فبعـث إليهـم عسـكراً، ورجـالاً ممن ساعدوه، وأخذوا من كل بلد غزواً، وسـاروا

بهم إلىالدرعية، ولما وصل العلج إلى بلدة "عرقة" حاصر من فيها وضربهم بالمدفع، وأخرجهم بالأمان على دمائهم وسلاحهم وقصدوا الدرعية، وفي أثناء هذه الحروب أصيب الجيش التركي بكارثة فادحة، حيث انفجرت مستودعات الذخيرة، فاشتعلت فيها النيران فدمر هذا الانفجار مقادير هائلة مما في خزائنهم من البارود والرصاص، وجميع أنواع الذخيرة، وكان ثورانها أمراً هائلاً لا يكاد يوصف، وسمع صوتها مسيرة ثلاثة أيام أو أربعة، وأهلكت خيلاً ورجالاً وأحرقت خياماً وأزواداً وأثاثاً، فألحق بهم هذا الحريق خسائر فادحة في الأرواح والعتاد وخلف ذعراً عاماً أصاب الجيش التركي بصدمة عنيفة، فهربت العساكر في رؤوس الجبال، ووقع في قلوبهم الخوف الشديد، وكانت هذه وهناً عظيماً على الترك، وهمّ أهل الدرعية بالهجوم عليهم في

مخيمهم ومداهمتهم فيه فلم يفعلوا، وكان أمـر اللـه قدراً مقدوراً، فـتراجع الـترك وثبتـوا، وعلـى أثـر هذه الكارثة أرسل إبراهيم باشا قطعانا من الجيـش إلى المدن والقـرى لجمـع الأسـلحة والذخـيرة مـن الناس تعويضـاً عما فقده في هذه الكارثـة[1]، فـأخذ من كل بلد ما فيها من خزانة وذخيرة وتتابع عليـه بعد ذلـك المـدد، وأتـت إليـه القوافـل متتاليـة مــن البصـرة، والزبـير، مـع أهـل نجـد الذيـن كـان قـد أجلاهم آل سعود عنها، فتابعوا عليـه القوافـل مـن الأرز، والحنطــة والتنبــاك، وجميــع حاجـــات العسـاكر، وسـارت إليـه القوافـل مـن نواحـي نجـد بجميع ما ينوب العساكر، فثبـت فـي موضعـه فـي الدرعيـة وتعـاظم أمــره، وتزايـد بـالحرب علــى الدرعيـة، فحاربهـا حربـاً عظيمـاً وهـم ثـابتون إلا

---

(1) انظر تاريخ نجد، عبد الله فلبي ص١٥٧-١٥٨ .

الخارج منها كل ليلة من أهل النواحي، ومن أهلها وبذل الباشا الأمان لمن خرج منها[1] .

ثم صارعدة وقعات ومهاجمات عديدة، تارة يحمل الترك عليهم وتارة يحملون على الترك، ثم جرى وقعة في "كتلة" قبلة البلد حصل فيها مقتلة عظيمة بين الفئتين، تلتها وقعات أخرى عديدة في "قُرَى عمران" عند نخل الرفيعة شرقي البلد، ثم إن آل دغيثر وأهل الناحية الشمالية حملوا على مدافع الترك فوقع عندها قتال شديد، وقتلوا عدة قتلى من الترك، فأرادوا أن يجروها فوجدوها مربوطة بسلاسل الحديد، وكان الترك قد ملأوا المدافع برصاص البنادق والكبريت فثوروها فأصابت أهل الدرعية فقتل منهم مقتلة ورجعوا عنها، ثم جرى وقعة في الرفيعة، وذلك أن الباشا سار بعسكره من مخيمه ومعه مدفعان، وسار

---

(1) انظر المرجع السابق ، ٢٠٤-٢٠٥ .

خلفه القرابة ومعهم أهل الخـرج ونـاصر صـاحب الريـاض بـأهل الريـاض، فـأقبل الباشـا ومـن معـه على الخيل، وحمل على المتارس والمحاجي التـي في شعيب الرفيعة فوقع فيهم هزيمـة، فظهـر فهـد ابـن عبـد اللـه بـن عبدالعزيـز عليهـم مـن الرفيعـة ومعـه جمـع مـن أهـل الدرعيـة، وأهـل سـدير وغيرهم، فوقـع بينهـم وبيـن القرابـة قتـال شـديد، فحمل عليهم الباشا بالخيل فقتل مـن أهـل الدرعيـة عدداً من القتلـى، فحملـوا علـى الباشـا وعسـاكره، فانهزم الخيل والقرابـة ومـن معهـم مـن أهـل تلـك النواحي، وقتل منهـم قتلـى كثيرة، ثـم كـرَّ الباشـا راجعاً عليهم فثبتوا له واقتتلـوا قتـالاً شـديداً هـائلاً وصـبر الفريقـان، وحصـل جـلاد عظيـم مـن بعـد طلوع الشمس إلى وقت الظهيرة وانجلت الوقعـة عن قتلى كثيرون من الفريقين، ثـم جـرى وقعـات ومقاتلات لا تحصـى وطال الحصار، وارتفع سعر

البر في بطن الدرعية حتى بلغت قيمة الصاع الواحد ريالاً، وخرج منها أناس كثير من أهلها ومن سائر النواحي، والأدهى والأمر أن الذين يخرجون ينضمون إلى صفوف العدو يقاتلون من كانوا بالأمس يقاتلون معهم[1].

وكان من أشد ذلك حرجاً خروج غصاب العتيبي قائد الخيالة داخل الدرعية الذي يعد من أخلص أعوان آل سعود، وقد خرج مغاضباً وسلم نفسه للعدو، وكان خروجه منها وقت الهاجرة وقصد الباشا، وبعد ذلك قوي عزم الباشا على الحرب، وقرب القبوس من البلد، وأصاب أهل الدرعية كآبة ووهن من خروجه، ثم انظم إلى جيش العدو يقاتل معه، ويعدل في خططه الحربية الهجومية، ويدله على العورات التي دخل منها العدو إلى داخل الدرعية، وقدم له معلومات

---

(1) المرجع السابق ، ص٢٠٦ .

عجلت في انتصار الغزاة الظلمة[1] ، فلما كان صبيحة السبت ثالث ذي القعدة حمل الترك على محاجي أهل الدرعية الجنوبية والشمالية والشرقية والغربية وهزموهم منها، وذلك أنه لما خرج من خرج من أهل الدرعية وغيرهم منها إلى الباشا أخبروه بعوراتهم وغراتهم وأخبروه بالموضع الذي ليس في أهله شدة في الحرب، وبالموضع الذي يتفرقون عنه في الليل، وبالموضع الذي ليس به إلا قليل، وبالموضع الذي يدخل منه على أهل الدرعية وهم لا يعلمون، فلما علم الباشا ذلك، وكان قد أتى إليه إمداد من العساكر كثيرة من مصر، فأرسل تلك الليلة إلى أسفل الدرعية مدفعاً وعسكراً وأمرهم أن يحققوا الحرب على من فيها، وذلك ليشغل بعضهم عن بعض، ثم جمع أهل النجدة من عسكره من الخيالة والقرابة وأرسلهم

---

(1) انظر تاريخ نجد عبدالله فلبي ، ص١٥٨ .

إلى قائده في الجهة الجنوبية وكمنوا عنده، ثم إنه حقق الحرب بالقبوس والقنابر والمدافع والبنادق على أهل الجهة الشمالية يريد أن ينحاز أهل الدرعية إليه فيها عن ماهمٌ به في الجهة الجنوبية، فلما كان وقت طلوع الفجر وهجموا على محجى عبد الرحمن بن سعود وهو من فوق "مشيرفة"، فوجدوه خالياً ودخلوا معه في وسط النخل المذكورة، واستولوا عليه، وهو من خلف محاجي أهل الدرعية من جهة البلد، فنقبوا جداره الذي على شفير الوادي وترسوا به، ثم ثارت الحرب العظيمة من الترك على كل من كان في جهته من أهل المحاجي الجنوبية والشمالية، فلما اشتغل بعضهم ببعض، واشتعلت نار الحرب في السماء والأرض، لم يفجأ أهل الدرعية إلا والترك قد أتوهم من خلفهم من جهة "مشيرفة"، وحمل عليهم الترك أيضاً من أمامهم فانهزموا عن محاجيهم،

وحمى الوطيس، واستقر القتال بين الجانبين حتى أصبح ما بين القلاع والحاميات الدفاعية مسرحاً لأعنف المعارك وأعظمها، وقتل من بين الفئتين قتلى يتعذر عدهم لا يكاد يرى إلا جثثاً متراكمة من الطرفين، ثم تفرق أهل الدرعية في بلدهم، كل أهل منزلة قصدوا منزلتهم، وترسوا في سورها ودورها، وقصد سعد بن عبد الله بن سعود قصر "غصيبة" المشهور الذي بناه سعود وجعل بابه من حديد فدخله واحتصر فيه ومعه عدة رجال من الأعيان وغيرهم وسلط المدافع على القصر، فحاربه حرباً لم ير مثله وثلم رؤوس البروج، والجدران، وتفرقت العساكر على أهل الدرعية في منازلهم، ودخلوا شيئاً منها، ووقع حرب، وقتال شديد بين أهل السهل من الدرعية وبين الترك، هذا وأهل السهل من أهل البجيري، والحوطة، والنقيب، والمريح حافظون جهتهم،

ومنـازلهم وعبـد اللـه بـن سـعود، ومـن معـه مــن الأعيان في منزلهم بين البابين باب سمحان، وباب الظهيرة[1].

فلما رأى عبد الله بن سعود البوار انتقل من سمحان وقصد منزله فــي الطريـف وتـرك مخيمـه ومدافعه وثقله في موضعه ذلك، ثم إن الباشا أقبـل بمدافعه ومن كان معـه من العسـاكر، ونـزل فـي منزل عبـد اللـه ووجـه قبوسـه إلـى بـاب الظهيرة ورماها رمياً عظيماً، وتفرقت عساكر الترك علـى أهل السهل، وأمسكوا فيه بيوتاً ونخيلاً، وكادوا أن يأخذوا أهلها عنوة، وجالدوا أهله مجـالدة عظيمـة، واشتدت وطأة الترك عليهم، فحمـاهم اللـه تعـالى، وكف أيدي الـترك عنهـم، فهمـوا بالمصالحـة فـرد بعضـهم علـى بعـض إن المصالحــة لا تكـون إلا باخراج تلك العساكر عن البيـوت والنخيـل، وقتـل

---

(1) المرجع السابق ، ٢٠٦-٢٠٧ ، عبارة ابن بشر بلفظه ومعناه.

ما أمكن منهم، فشهر سيفه عبد الله بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب وانتدب، واجتمع عليه أهل البجيري، ونهضوا على الترك من كل جانب كأنهم الأسود، وقاتلوا قتالاً يشيب من هوله المولود، فأظلمت البجيري كأنها الليل، وصريخ السيوف في الرؤوس كأنه صهيل الخيل، فأخرجوهم منها صاغرين، وقتلوا من الترك عدة مئين، حتى قال لي بعض من حضر ذلك "القول لابن بشر" لوحلفت بالطلاق أني من الموضع "الفلاني" إلى الموضع "الفلاني" لا أطأ إلا على رجل مقتول لم أحنث، فدخل الترك بعد هذا الفشل، وصار في قلوبهم منهم وجل، ثم أرسلوا إلى الباشا وطلبوا الصلح، فأجابهم إليه بعدما كان آبيا، ولان لهم بعد ما كان قاسياً، فخرج إليه من الأعيان عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن سعود، والشيخ العالم علي بن الشيخ محمد بن

عبدالوهاب، ومحمد بن مشاري بن معمر، فأرادوا منه أن يصالحهم على البلد كلها، فأبى أن يصالحهم إلا على أهل السهل، أويحضر عبد الله ابن سعود، فتم الصلح بينهم على أهل السهل على دمائهم، وأموالهم، وما احتوت عليه بلدهم، وذلك يوم الأربعاء سابع ذي القعدة، فدخل الترك في السهل لمحاربة عبدالله، ووقع الحرب الهائل على أهل الطريف من كل جهاته، من جهة المغرب، والمشرق، وجهة الجنوب، والشمال، فاستدار الترك عليه، ووجه الباشا قنابره وقبوسه ومدافعه إليه، فرماه من رأس جبل باب "سمحان"، وثارت البنادق واشتعلت نارها من كل جهة، فثلمت مقاصير السعود بالقبوس، وخرقت واستشرفت نفوس عساكر الترك لأخذها عنوة فحماهم مالك الملك وصدهم عما أرادوا، فأخرج عبدالله المدافع التي في القصر وجعلها في مسجد الطريف،

ورماهم بهـا، وانحـاز إليـه رجـال كثير مـن أهـل البجيري، وأهل النواحي، فاستمرت المقاومة نحـو يومين، ثم تفرق عن عبد الله أكثر من كان عنـده، وبـذل لهـم الدراهـم فأخذوهـا وهربـوا، وبعـد سـتة أشـهر مـن القتـال الضـاري والحـرب الضـروس والخسـائر الفادحـة فـي الأرواح والممتلكـات قـرر الإمام الاستسلام، وبذل نفسه للترك وفدى بها عن النسـاء والولـدان والأمـوال، فأرسـل إلـى الباشـا وطلب المصـالحـة، فـأمره أن يخـرج إليـه، فخـرج إليه واتفقا أن يركب الإمام عبد الله إلـى السـلطان فيحسن إليه أو يسـيء، ثم دخـل منزلـه وأطـاعت البلـد كلهـا للغـزاة، وهـرب رجـال مـن الأعيـان، وممن هرب سعود بن عبدالله بن محمد بن سـعود من الطريـف فأخذتـه خيـل الـترك وقتـل صـبرا

ويواصل ابن بشر قائلاً:

وأما قصر "غصيبة" الذي دخله سعد بن عبد الله -كما سبق- فإن الباشا لما نزل "سمحان" تابع الحرب عليه، وثلم جدرانه فصالحه أهله وقت مصالحة أهل السهل، وقتل في هذا الحصار من أهل الدرعية، وأهل النواحي، ومن الترك أمم كثيرة، وذكر لي رجل -الكلام لابن بشر- ظهر من مصر ممن جلا مع آل سعود قال: إن كاتب الباشا ذكر لنا في مصر أن الذي هلك من العسكر من ظهوره من مصر، إلى رجوعه إليه اثنا عشر ألف رجل، قُلتُ: -ابن بشر- وعلى هذا القول فلم يقتل من العسكر في الرس وعنيزة وشقراء وبلد ضرمى بالتخمين إن كثرنا فألفان وإن أقللنا فألف وخمسمائة والباقي في الدرعية، والذي قتل من أهل الدرعية في هذا الحصار، وممن كان عندهم

من أهل النواحي عدد كثير قيل إنه ألف وثلاثمائة رجل[1].

لقد بدأ إبراهيم باشا قائد الحملة الباغية الطاغية، وكبير الغزاة البغاة الظلمة بهذه المتاريس واحداً فواحداً، يسلط مدافع الجيش على الذي يليه ويحشر القوة على هذا ويفسد متاريسهم ليخرجوا منها، ثم يحتلها رجاله وجيشه ويطاردونهم ويجلونهم عن مذاريهم "ومحاجيهم" وهكذا حتى طوى تلك المواقع طيا، وفي النهاية طوق البلد بعد أن أنهى الدفاعات التي خارجها، ثم سلط على أسوارها المدافع، والقنابل شديدة الانفجار، واستمر ينازل ويراجم شهوراً حتى تهدمت المباني، وخربت المنشآت، وخلت البلاد من المؤن، ونفذ صبر المحاصرين المجاهدين الذين أبلوا بلاء حسنا، حتى لم يبق للصبر مكان.

---

[1] المرجع السابق ، ص٢٠٨-٢٠٩ ، م١٤ج١ ، عنوان المجد، عبارة ابن بشر بلفظه ومعناه.

كيف انتصر الغزاة ولماذا ؟

وما هي أهم العوامل التي أدت إلى نجاح الغزاة في الاستيلاء على الدرعية عاصمة الدعوة ؟ وإنهاء الحكم فيها

الذي يقرأ تاريخ نشأت الدولة السعودية الأولى، وخطوات توحيد أجزاء الجزيرة العربية، ويتابع الانتصارات الرائعة التي حققتها قوات تبليغ الدعوة، ورايات نشرها في أنحاء شبه الجزيرة العربية، يدرك تماماً الجهود التي قام بها المجاهدون أصحاب وأنصار الدعوة في توحيد تلك الأجزاء، وجمع كلمة المسلمين تحت راية واحدة، ونشر العقيدة السلفية، ويشعر المواطن المسلم بالفخر والاعتزاز والشموخ، ولكن حينما يبلغ قمة الفخر، ونشوة الإعتزاز يفاجأ بعاصفة عاتية تدفعه إلى السقوط السريع في هوة الهزائم المتلاحقة، فيشعر بخيبة الأمل، ويحس أنه يكاد يموت كمداً وأسى مما حل بالمسلمين من انتكاسة ذهب ضحيتها مجهوداً ضخماً، وإنجازاً هائلاً، وكماً من الرجال، والأموال، وما كانت هذه الانتكاسة بسبب نقص في الشجاعة، أو قلة في

العدد، أو جهل في أصول الحرب، وفنونه، ولكن من أسبابها التخاذل، وتفرق الكلمة، والفشل الذريع، وضلوع الكثير من أبناء البادية بالطمع الذين فقدوا مقومات الولاء للحكومة المركزية في الدرعية، وانتشار هذه الظاهرة بين صفوف المحاربين، وخاصة بعد فتح مكة والمدينة، ودخول عناصر مشكوك في ولائها للحكومة الجديدة، واتصال الأشراف سراً بمحمد علي الذي يعد العدة ويسلح الجيوش لاستعاده مكة والمدينة، والقضاء على حكومة الدرعية التي أصبحت في منظور الدولة التركية مصدر إزعاج، وقلق لاستقرار سلطتها في ولاياتها، فكانت خيانة الشريف غالب أكبر عون للغزاة على احتلال البلاد، والقضاء على حكومة الدرعية، وخنق صوت الدعوة، والوقوف ضد انتشارها. كما أظهر تكالب القوى المعادية عدم كفاءة الخبرة،

والسياسات التي مارسها قادة القوات في كثير من الجبهات الدفاعية، إضافة إلى أنها لم تأخذ بعين الاعتبار خطورة التوسع في الفتوحات بما يفوق طاقتها، وإمكاناتها الفعلية.

وكان "محمد علي" عند ما قرر حرب حكام الدرعية قام بإرسال الحملات إلى الجزيرة العربية عن طريق البحر والبر، ومن الجائز أن يكون وصولهم عن طريق البحر مفاجأة للدولة السعودية لعدم توفر وسائل الاتصالات السريعة، ولكن الحملة التي جاءت عن طريق البر عبر ميناء العقبة المكونة من الفرسان، والمشاة يجب ألا يكون قدومهم مفاجاة، بل المفروض أن يكون للدولة عيوناً مفتوحة، وآذاناً صاغية، وأن يكون على منافذ الحدود مراكز حراسة مشددة متيقظة تصد مثل هذه الانتهاكات على الحدود، قبل الدخول، أو على الأقل مطاردته بعد دخوله

الأراضي الخاضعة للسلطة السعودية، ومن المهانة والإهمال أن تقطع الحملة كل هذه المسافات داخل الحدود السعودية دون أن تجد من يقف في وجهها، حتى وصلت إلى مرفأي المويلح، وينبع، متخطية كثيراً من المراكز، والمنافذ الحدودية، والمدن، والقرى، حتى تجمعت في ينبع، وأخذت تعد العدة، وتقوم بعمليات التجهيز اللازمة، وتنظيم نفسها استعداداً للهجوم. وفيما يلي: استعراض مفصل لبعض النصوص التاريخية التي تساعد على فهم بعض الحقائق في عشر مسائل:

*** المسألة الأولى:**

جاء في عنوان المجد ما نصه: " فسير "محمد علي" العساكر براً وبحراً، فاستولى العسكر القادمون عن طريق البحر مرفأ ينبع، فهرب منها رئيسها جابر جبارة، وقصد المسلمين، ثم سير

ابنه طوسون بالعسكر الكثيف عن طريق البر، فاجتمعت العساكر البحرية والبرية في ينبع، وهم نحو أربعة عشر ألف مقاتل، أو يزيدون، فلما سمع سعود بمسيرهم أمر على نواحي المسملين من الحاضرة والبادية، فسارت جموع المسلمين البالغ عددهم ثمانية عشر ألف مقاتل وثمانمائة فارس بقيادة ابنه عبدالله بن سعود، ونزلت تلك الجموع في "الخيف" بوادي الصفراء فوق المدينة المنورة، واستعدوا لإقبال العساكر المصرية الغازية، هذا ما أورده ابن بشر[1] ، وزاد المسألة توضيحاً مؤلف كتاب تاريخ الدولة السعودية الأولى عبد الرحيم عبد الرحيم بما نصه: فسارت الحملة المكونة من ثمانية آلاف مقاتل خمسة آلاف من المشاة والمدفعية سافروا عن طريق البحر على السفن المصنعة محلياً والمستأجرة البالغ

---

(1) ١٥٧/١ عنوان المجد .

عددها ثلاث وستون سفينة، وقد تحركت الحملة الأولى في ١٩ رجب ١٢٢٦هـ- ١٨١١/٨/٨م، والحملة الثانية تحركت في ٥ شعبان ١٢٢٦هـ- ١٨١١/٨/٢٦م على دفعتين، ويقدر فريق الفرسان بثلاثة آلاف فارس سافروا بطريق البر عبر العقبة إلى ينبع التي كان مقرراً أن تكون نقطة تجمع القوات البحرية والبرية[١] .

ومما تقدم يتضح أن جيوش الاحتلال وصلت إلى البلاد على دفعات متتالية عن طريق البحر، وعن طريق البر عبر ميناء العقبة بعددها، وعدتها، وسلاحها، وجنودها المدربة، حتى وصلت إلى مرفأي المويلح وينبع متخطية بذلك المنافذ البرية، والمراكز الحدودية دون أن يعترض طريقها معترض، ثم بنت معسكراتها في

---

(١) ٣١١/١ الدولة السعودية الأولى قدر ابن بشر عدد الغزاة بأربعة عشر ألفاً وعبد الرحيم قدرهم بثمانية آلاف مقاتل.

ينبع استعداداً للاحتلال، وبعد هذه الاستعدادات بدأت قوات الاحتلال بالزحف نحو المدينة بثقلها، واستعداداتها، وكانت القوات تقف لها في طريق زحفها، وقد تصدت لها، ولعل حصارها في نقطة تجمعها، وإشغالها عن التنظيم، والتجهيز، ومباغتتها أفضل من انتظارها في الطريق بعد أن استعدت للنزال، وإن انتصرت القوات السعودية في هذه المعركة بسبب استراتيجية المكان ومناسبته لتلك القوات حينما احتلت المرتفعات، وسيطرت على العدو من تلك المواقع، إلا أن منازلتها في مكانها بعد أن فاتها منعها من الدخول أيسر، وأسهل، وأقل كلفة، وأكثر هيبة للدولة، وجيوشها، والمعروف -كما يقال- الوقاية خير من العلاج، والتحصين عن الوباء أفضل من علاجه بعد نزوله.

*** المسألة الثانية:**

كما فاتها –ولا يمكن تلافية –أن القوات السعودية لما انتصرت على الجيوش الغازية انتصاراً ساحقاً تركت الفلول تذهب كما أرادت فاتجهت إلى مرفأ البريكة، وركبوا السفن إلى نقطة الانطلاق للاجتماع من جديد، وإعادة ترتيب أنفسهم، واستعدادتهم، وانتظار المدد الآتي من مصر تعويضاً عن الرجال والسلاح، والذخيرة، والخيل، والركائب المفقودة أثناء المعركة، وكان من الرأي والسياسة، والتكتيك الحربي مطاردتهم ومتابعتهم، والقبض على المستسلم، وأخذه أسيراً، وقتل المقاوم تمشياً مع قواعد الحرب المتبعة، واتخاذ هؤلاء الأسرى وسائل ضغط على العدو في حالة النصر، أو الهزيمة، واكتفاء شرهم، حتى لا يعودوا مرة أخرى.

*** المسألة الثالثة:**

لما أعادت الجيوش الغازية بناءها، ورتبت نفسها تحركت زاحفة إلى المدينة المنورة، وكررت نفس المحاولة الأولى، فكان حليفها النجاح، لأن أحداً لم يعترضها، وأكبر من ذلك أنها حاصرت المدينة، وضيقت الخناق على المرابطة، وتركتهم القوات السعودية يواجهون مصيرهم المحتوم بأنفسهم، وتخلى عنهم القادة، فبقوا في الحصار الشديد أياماً طويلة، حتى أرهقهم التعب، وآلمهم الجوع، والعطش، وانتشرت بينهم الأمراض، وفتكت بهم، يقتلون، ويعذبون، وتدمر عليهم تحصيناتهم، يقول ابن بشر في حصار المدينة:

وفي هذه السنة ١٢٢٧هـ قدم من مصر أحمد بن نابرت على العسكر المقيمين في ينبع البحر مع أحمد طوسون بعد وقعة "الخيف"، ومعه

عساكر كثيرة، فضبطوا ينبع، وتبعهم بقية عربان جهينة، واستولوا على ينبع النخل، ثم على وادي الصفراء، وبلدان بوادي حرب، ثم ساروا قاصدين المدينة النبوية، وسارت معهم بوادي حرب، فنزلوا على المدينة منتصف شوال، وحصروها أشد الحصار، ونصبوا عليها المدافع، والقنابل الكبار، وهدموا ناحية قلعة البلد، وحفروا عليها السراديب، وثوروا فيها البارود، وكان فيها عدد كثير من جميع النواحي جعلهم فيها سعود وقت قفوله من الحج نحو سبعة آلاف رجل، لكنهم ابتلوا بالأمراض المؤلمة، ثم أن العساكر المصرية كادوهم بكل كيد، وقطعوا عنهم المياه الداخلة في وسط المدينة، وحفروا سرداباً تحت سور قلعة المدينة وملؤوه بالبارود واشعلوا فيه النار، فانهدم السور، فقاتلهم من كان فيها من المرابطة قتالاً شديداً. ثم أن أهل المدينة فتجوا للترك باب البلد،

فلم يدر المرابطة إلا والرمي عليهم من الترك داخل البلد[1]. فانحاز المرابطة وجنود المسلمين إلى القلعة فاحتصروا فيها، وكانت ضيقة عليهم من كثرتهم، وصار فيها خلق كثير يرتكم بعضهم على بعض، ونصب الترك عليهم القنابل والمدافع، فكانت القنبلة إذا سقطت وسط القلعة أهلكت عدداً من الرجال، فكثر فيها المرضى والجرحى، فطلبوا المصالحة بعد أيام، فنزلوا منها بالأمان، وهلك في هذه الواقعة من المسلمين بين القتل، والوباء، والهلاك في البر بعد ما خرجوا من المدينة، وقبل أن ينزل عليهم الترك نحو أربعة آلاف رجل من عسير، وأهل بيشة، والحجاز، وأهل الجنوب، وأهل نجد، وظهر باقيهم إلى أوطانهم، وأمسك الترك حسن قلعي قائد المرابطة،

---

(1) وذلك في ١٢٢٧/١١/٩هـ .

وعذبـوه بـأنواع العـذاب، وبعثـوه إلـــى مصـــر،[1] وبعث طوسون مفاتيح المسجد النبوي، ومعه ثلاثة آلاف أذن من آذان القتلى[2] الذي يقرأ هذا النـص يكـاد يـذوب قلبـــه أســـى لهـذه الأفعـــال البربريـــة والتمثيل بالمسلمين في أرض اختارها الله مهاجراً لنبيـه الكريـم ﷺ ، وكـان مــن الواجـب أن يفـزع الإمام لفك الحصار المضروب عليهم، وأن يسارع إلى نجدتهم، وتطويق عدوهم من الخلف، لإنقـاذهم مـن المـوت المحـدق بهـم، أمـا تركهـم نهبـاً للعـدو يواجهـون مصـيرهم بأنفسـهم، فإنـه لـم يكـــن مـــن التوفيـق فـي شـيء، بـل أنـه مـن التخـاذل، وفسـاد الرأي، ومن دواعي الهزيمة التي حلت بالمسلمين، حتـى فتـح العـدو المدينـــة، وأفســد أخـــلاق أهلهــا بالرشـاوي والهدايـا، ومثـل بالمجـاهدين المدافعيـن

---

(1) انظر ١/١٦٠ - ١٦١ ، عنوان المجد لابن بشر .

(2) الدولة السعودية الأولى ١/٣١١ ، عبد الرحيم عبد الرحيم .

عن اجتياح مدينة الرسول ﷺ، فقطع أذانهم، وأرسلها إلى الاستانة هدية مع مفاتيح المسجد النبوي الشريف، وقد أدى تجاهلهم، والإعراض عنهم إلى هبوط معنويات المقاتلين مع الإمام، وتثبيط هممهم لما علموا أن التورط في معركة خاسرة مثل هذه لا يجدون من يهب لإنقاذ حياتهم، ويدافع عنهم عدوهم.

*** المسألة الرابعة:**

عندما حاصر الإمام طلائع الجيش الغازي في قصر الحناكية، وعددهم ثلاثمائة مقاتل، واستسلموا للجيش السعودي اكتفوا بتسفيرهم إلى العراق، يقول ابن بشر في توضيح ذلك: وفي آخر ربيع عام ١٢٢٨هـ سار سعود رحمه الله تعالى بالجيش المنصور من الحاضرة والبادية، وقصد الحناكية الماء المعروف قرب المدينة النبوية، وكان في قصرها عسكر من الترك مع

عثمان كاشف، وعلى الماء أعراب من حرب وغيرهم، فلما أقبل عليهم هرب البوادي بإبلهم وزينونها الحرة، فدهمهم المسلمون في منازلهم وأخذوا ما وجدوا فيها من الإناث والأمتاع، ثم أن سعوداً نازل العساكر التي في ذلك القصر وهم نحو ثلاثمائة فارس ومقاتل، وحصرهم، فهَمَّ المسلمون أن يتسوروا عليهم الجدار، فطلب العسكر من سعود العفو، ومنع عنهم المسلمين، فنزلوا بالأمان على دمائهم وأموالهم، وشرط عليهم أن يسيروا إلى ناحية العراق، فساروا إليها، وأمر سعود محمد بن عبد المحسن بن فايز العلي صاحب الجبل وجيش معه من المسلمين أن يسيروا معهم، حتى يبلغوا مأمنهم[1]. وهذا التساهل والتسامح في مثل هذا الموقف يضعف هيبة القوات السعودية، ويدفع العدو بزج مقاتليه

---

[1] انظر عنوان المجد لابن بشر ١/١٦٢ - ١٦٣ .

في أي معركة، وكان من الرأي والسياسة أن يأخذ الإمام هؤلاء أسرى، ويزج بهم في أحد الحصون سجناء حرب معاملة للغزاة بالمثل، فالعدو يقتل في مدينة الرسول ﷺ الرجال، ويمثل بالقتلى، ويقطع آذانهم، ويرسلها كأنها لحوم مجففة، ويحز رؤوس قادة المدافعين، ويرسلها محنطة إلى مصر، وخصمهم يتسامح معهم إلى هذا الحد بحيث يرسلون ومعهم من يحميهم ويحرسهم، حتى يصلوا إلى بلادهم، أو إلى مأمنهم سالمين، هذه العملية وإن كانت إنسانية، إلا أنها في جانب الحرب ضعف لا تناسب الموقف الملتهب.

*** المسألة الخامسة:**

قامت حملات التطهير، ومعاقبة المتخاذلين بإغارات على الموالين، والمتعاونين مع العدو، حتى وصلت إلى المدينة المنورة، ودارت عليها، ومع ذلك لم يعيدوا الكرة على الحاميات التي قتلت

المسلمين، واحتلها، وكانت الفرصة سانحة لاستعادة المدينة المنورة في وقتها، وكان الاحتلال محتملاً، ولكن القوات السعودية ترددت في ذلك، وإنما اكتفت بتعقب الذين أغراهم العدو بالأموال، فمالوا معه، وانضموا إليه، وساعدوه بالدلالة، ونعت الطريق، وحمايته أثناء مسيره، وهذه مسألة سابقة لأوانها فإن من الرأي والسياسة تأجيل ذلك حتى تخلو الساحة من الغزاة، ثم تأتي محاسبة المخالفين، ومكافأة الموالين، وقد يكون من الأفضل استدعاؤهم، واستمالتهم، ومحاولة التأثير عليهم وتغيير وجهات نظرهم بالحكمة، والملاينة لا العنف الذي دفعهم إلى المكابرة، والاستمرار في ممارسة الباطل، والوقوف مع العدو ضد إخوانهم، وأوطانهم، وعشائرهم، حتى أوقعت هذه الشدة البعض منهم إلى السفر إلى مصر يستحدث "محمد علي" على معاودة حربهم بعد أن سمعوا بالصلح.

*** المسألة السادسة:**

عندما سئم طوسون وقواده ومستشاروه الحرب، ورأى أن الهزيمة وشيكة، وأن التعب والوهن قد دب في مقاتليه، وأن الدخول في عمق الأراضي النجدية من الصعوبة بمكان مع ما رأى من الدفاع المستميت عن العقيدة، والوطن، همَّ بالانسحاب إلى المدينة المنورة، ولكنه أراد تغطية الهزيمة بالتظاهر بالنصر، فلبس مسوح العاطفة، ولجأ إلى الصلح مدعياً حقن دماء المسلمين، والتعاطف مع أولئك المدافعين، فاستجاب له خصومه، وفرحوا بمشروع الصلح المغلف بالمكر والخديعة والحيلة، فكان من الجبن قبول هذا الصلح بشروطه المجحفة الجائرة التي لا يليق بالقائد مجرد سماعها، ولا يمليها إلا منتصر غير مهزوم، وقد جاءت تلك البنود كما يلي:-

١ - احتلال جيش طوسون للدرعية.

٢ - يرد آل سعود كل ما أخذوه من الحجرة النبوية.

٣ - يضع عبد الله بن سعود نفسه، تحت تصرف جيش طوسون فيسافر إلى الجهة التي يريده أن يسافر إليها في الوقت المناسب.

٤ - أن يكون عبد الله خاضعاً لحاكم المدينة من قبل "محمد علي"، إلى حين الموافقة على الصلح.

٥ - لا تصبح هذه الشروط في حالة الاتفاق عليها نافذة، إلا بعد اقرارها من "محمد علي"[1] .

هذه البنود الجائرة تعني الاستسلام الكامل، ومع ذلك فإنها غير قطعية، ولا ملزمة للخصم، فهي تشترط موافقة "محمد علي"، ومع هذا التعنت قبلوا بمبدأ المصالحة، وأرسلوا شروطاً جديدة

---

(1) انظر ١/٣٣٣ الدولة السعودية الأولى، د/ عبد الرحيم عبد الرحيم عبد الرحيم.

مقترحة من قبلهم إلى مصر، وأوقفوا الحرب، وهذا ما كان يسعى إليه المهزوم، وعادت تلك الجيوش أدراجها إلى الحجاز منتظرة ما يقرره الباب العالي أو "محمد علي"، وهي مجرد فترة راحة، واستجمام، وتنظيم للجيوش التي سوف تنقض مرة ثانية على المسلمين، وتجتاح بلادهم التي أصبحت مكشوفة للعدو الغازي.

*** المسألة السابعة:**

لما عادت الجيوش المصرية والتركية بقيادة "إبراهيم باشا" إلى الحرب رافضة أو متجاهلة الصلح الذي تقدم به طوسون، وحاصر "إبراهيم باشا" مدينة الرس، وشاب قرنه عند سورها يحاول فتحها عدة أشهر، تركه الإمام في محاولاته، حتى مل المدافعون، وسئموا وطلبوا من القوات القريبة منهم عدة مرات الهجوم على الجيوش الغازية، وفك الحصار عنهم، ومع ذلك لم

تسارع القوات السعودية لنجدتهم، حتى سلموا كارهين، يقول ابن بشر في هذا "فأقبل عسكر الترك مع إبراهيم باشا، ونزلوا الرس في ٢٥ شعبان فثبت لهم أهل الرس، وحاربوهم، وأرسل إليهم عبد الله مرابطة مع حسن بن مزروع والهزاني صاحب حريق نعام، فحاصرهم الترك أشد الحصار، وتابعوا الحرب عليهم في الليل والنهار، كل يوم يسوق الباشا على سورها صناديد الروم، فأنزل الله السكينة على أهل البلاد والمرابطة، وقاتلوا قتال من حمى الأهل والعيال، وصبروا صبراً ليس له مثال. فكلما هدمت القبوس السور بالنهار بنوه بالليل، وكلما حفر الترك حفراً للبارود حفر أهل الرس تجاهه حتى يبطلوه، وبعض الأحيان يثور عليهم وهم لا يعلمون، وطال الحصار إلى اثني عشر ذي الحجة وذكر لي -ابن بشر- أن الترك رموه في ليلة

خمسة آلاف رمية بالمدافع والقنابل والقبوس -المدافع- ، وأهلكوا ما خلف القلعة من النخيل وغيرها. هذا وعبد الله بن سعود وجنود المسلمين في عنيزة على الحال المذكورة، وأرسل أهل الرس إليه ، إما أن يرحل إلى الترك ويناجزهم، وإما أن يأذن لهم بالمصالحة، فأقبل عساكر، وقبوس، وأمداد من الترك كثيرة، ونزلوا على إبراهيم باشا ومن معه في الرس، واستعظم أمره، وكثرت دولته، فوقعت المصالحة بينه وبين أهل الرس على دمائهم، وأموالهم، وسلاحهم، وبلادهم وجميع من عندهم، والمرابطة يخرجون إلى مأمنهم بسلاحهم وبجميع ما معهم، فخرجوا من الرس وقصدوا عبد الله وهو في عنيزة، وقتل من أهل الرس، والمرابطة نحو سبعين رجلاً، وقتل من عسكر الترك ما ينوف على ستمائة رجل"[1]

(1) ١٨٩/١ ، عنوان المجد لابن بشر .

في هذا النص عـدة دلالات: الأولـى شـجاعة أهـل الـرس، وتجلدهـم، وعنـادهم، والدفـاع عـن نفسـهم وبلادهم، والدلالة الثانية ذل المدافعين، وتخـاذلهم وانهزاميتهم، واستسلامهم للعدو، وكان من الـرأي والسياسة مناجزة إبراهيم باشا، والهجوم عليه فـي حصاره ذلك.

ثم تكررت نفس الصورة في كل البلاد بـداء من قصر الصفـاء فـي عنـيزة إلـى أهـل "شـقراء"، و"ضرما" الذين صمدوا صمود الجبال الراسيات، ولـم يكـن فـك الحصـار عـن تلـك البـلاد مـن بيـن الخطط الحربية لقوات الدفاع السعودية، وهذه مـن عوامل الهزيمة المؤكدة، فإن وصول الجيوش إلى العاصمة مؤذن بسقوطها وخرابها، وسوف يجـري عليها ما جرى على غيرها من المـدن إذ لـم تكـن بأكثر منها دفاعاً وصموداً واستماتة.

*** المسألة الثامنة:**

كما أنه لم يكن من الخطط الحربية لقوات الدفاع السعودية قطع طرق التموين والامدادات التي تتوالى على الجيوش المصرية الغازية من قواعد التموين في الحجاز، على الرغم من المسافة الطويلة التي تقطعها قوافل الامدادات، فإنها تصل المؤن إليهم في الجنوب الشرقي من نجد، بل إن الامدادات تصل إليهم في أي مكان دون أن تتعرض القوافل للهجوم، وهذا من الأدلة الواضحة على تخاذل المسلمين، وهوانهم، وضعفهم، وممالأت القبائل للجيوش الغازية.

*** المسألة التاسعة:**

دخول كل تلك القوات في المحتصر داخل تحصينات الدرعية ظناً من القادة أن جدراناً من الطين سوف تصد مدافع، وقنابل العدو الذين

أقبلوا من أقصى شمال أفريقيا يريـدون الاحتـلال، وما كان من الحكمة والسياسة حشد القوات داخـل الأسوار، وكان من الحكمة والسياسة، والـرأي إلا يدخلـوا جميعـاً فـي الحصـار، ويسـلموا أنفسـهم لعدوهم لقمة سائغة، يضرب عليهم العدو حصاره، ويسرح ويمرح في بلدانهـم ومزارعهم، والرجـال المقاتلون داخل الأسوار يئنون تحت وطأة المجهول.

*** المسألة العاشرة والأخيرة:**

عندما رضوا لأنفسهم بالحصار واستسلموا لتطويـق العدو لـم يحـاولوا أن يستفيدوا مـن سـأم العدو وعجزه المتكـرر مـن اقتحـام البلـد، كمـا لـم يحـاولوا الاسـتفادة مـن الظـروف السـيئة التـي أحاطت بالعدو أكثر من مـرة فـي أوقـات مختلفـة، حتـى أضـاعوا الفرص التـي اتيحـت لهـم، ممـا أدى إلى تدهور مركز القوات السـعودية وضعـف

الموقف الدفاعي لتلك القوات. ومن ذلك أنهم لم يستغلوا حادثة الحريق الذي شب في مستودعات الذخيرة، فلو حملوا وقتها على العدو حملة صادقة، وطاردوه لوجدوا لهم في ذلك مفراً ومتنفساً، ولن يكرر العدو الغزو مرة ثانية في حالة هزيمته، وطرده من البلاد خائباً.

وقد خاض المؤرخون، وهاموا بكل اتجاه يلتمسون أسباب نجاح الغزاة، وفشل الأمة في الدفاع عن وطنهم، وأعراضهم وأنفسهم، حتى أذلهم العدو، وخرب بلادهم، وقتل أعلامهم، وزعماءهم، وعلماءهم، وشرد أطفالهم، ونساءهم، واحتل بلادهم، والحقيقة أن الأسباب ظاهرة لا يحتاج بحثها إلى جهد جهيد، وأهمها ما أشير إليه آنفاً[١].

---

[١] ويروى أن إبراهيم باشا قال لرجاله بعد استسلام الدرعية، وتخريبها " الدولة السعودية انتهت، ولن تذكر، وراية التوحيد طويت، ولن تنشر" د. منير العجلان، تركي بن عبد الله.

وتكـاد تتفـق الآراء علـى أن كـثرة عـدد الـترك، وتفـوق قوتهـم، وعتـادهم، واسـتمرار الإمـدادت التـي تصـل إليهـم مـن رجـال وسـلاح ومـؤن دون معارضـة، عـامل هـام مـن عوامـل نجـاحهم، وأن خيانـة بعـض المواطنيـن، بمسـاعدة الغـزاة، وإرشـاد العـدو إلـى أسـرار المجـاهدين والمدافعين ومواطن الضعف، كان من أهم أسـباب الهزيمة، كما فات القوات الوطنية مما فـاتهم عدم وجـود جنـود خـارج الحصـار يقومـون بـالهجوم الخاطف في الليالي المظلمة التـي ليس فيهـا قمـر من خلفهـم، حتـى ولـو كـانت قليلـة العـدد والعـدة، وكـانت قاصمـة الظهـر أنهـم جعلـوا لجهـادهم ودفاعهم نهاية، وهو الاحتصار المحكم، فلو تركوا لهم فرصة فـي حالـة اللجوء إلـى الـتراجع لكـانوا أكثر توفيقاً، ولما انتهت الدولـة بسـقوط الدرعيـة، فإن العدو كلما تحرك جنوباً بَعُدَ عليه المدد، وقلت

فرص النجاح أمامه، ولو تركوا جبهة دفاع قوية في جهات الحاير، والخرج وحوالي المنطقة بقيادة أحد أبطالهم في حالة انتصار العدو، أو مقاربة الانتصار تهجم هذه القوة الطليقة من الخلف، وتلتف على العدو، كما أنهم لم يترجموا الفرص المتاحة إلى أفعال مضادة تحيط بالعدو في الظروف السيئة التي تلم به في مختلف الأوقات، ولكن ما حصل من هزيمة وإخفاق أمر مقدر: ﴿ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً﴾[1] ، وقد تكون هذه المسائل العشر من أبرز السلبيات التي كانت وراء سقوط عاصمة دعوة التوحيد السلفية، وانتهاء الحكم السعودي في دوره الأول.

---

[1] سورة الأنفال ، جزء من الآية ٤٢ .

خاتمة الكتاب

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لاإله إلا الله وحده لا شريك له، أسبغ علينا نعمة ظاهرة وباطنة، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وخاتم رسله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم .. أما بعد:

فإن دوام النعم مقرون بشكرها، وكفرها مؤذن بزوالها، وقد تم بفضل الله تعالى إنجاز هذا الكتاب الذي تناول الأحداث التي وقعت في الفترة مابين ١١٥٧- ١٢٣٣هـ [١]، وقد حرصت على تدوين ما يتطلع إلى معرفته القارئ الكريم، وتاريخ تلك الفترة يضع بين يدي القارئ مدى

---

[١] تواريخ مشهورة ١١٣٩هـ تولى محمد بن سعود إمارة الدرعية. ١١٥٧هـ قدم محمد بن عبد الوهاب إلى العيينة. ١١٥٩هـ قدم إلى الدرعية ، وتعاقد مع محمد بن سعود، وتعاهدا على نشر الدعوة.

المعاناة والشدة التي كان يقاسيها أبناء الجزيرة العربية قبل دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، والظروف القاسية التي كانت تحيط بهم من كل جانب من جوانب الحياة المختلفة بدءاً بالفقر والفاقة، وشظف العيش، وقلة ذات اليد، واضطراب حبل الأمن، وتفرق الكلمة، إلى الجهل المنتشر بين أبناء البادية، والحاضرة، يرافق ذلك الخرافات، والبدع، والاعتقادات الفاسدة المسيطرة على أفكار العامة، لبعدها عن روح الدين الحنيف، وقد كانوا في تلك الفترة يجهلون أبسط مبادئ الإسلام -أركانه وواجباته- والاعتقاد السليم، وخاصة أبناء البادية الذين عزلتهم حياة الصحراء، والترحال، عن الأماكن التي يمكن أن يتواجد فيها العلماء -على قلتهم- وانشغالهم بترحالهم وملاحاة مواشيهم، إلى الأمراض المستوطنة المتنوعة التي لا تجد من ينفر صيدها.

ولما أراد الله إنقاذ البلاد من هذه الشدة، هيأ لها دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب المباركة، وحركته الإصلاحية، يناصرها الإمام محمد بن سعود، فكانت هذه الدعوة، وهذا الاتفاق بين الإمامين من أهم أحداث التاريخ التي غيرت مجرى الحياة في شبه الجزيرة العربية ، فأنقذ الله في هذا الاتحاد العباد والبلاد من الشدة والذلة والفرقة، حيث انتقل الناس بسبب هذه الدعوة المباركة إلى العلم، والمعرفة بما بذله الإمام المجدد بالتعاون مع حكام الدرعية من جهود موفقة في سبيل نشر الدعوة بالرسائل والكتب، والوعظ، والإرشاد، والسيف أحياناً.

وقد حشدت تلك الدعوة لانتشارها الجهود المضنية، والرجال، والمال، والوقت، حتى سيطرت على الوضع المتردي في البلاد، ووحدت الأجزاء المتناثرة، والمناطق المتباعدة ، والأفراد

المتناحرة، وخرجت بالعامة من مجاهل الجهل المظلم إلى معالم العلم المضيء.

ولم تفد الجزيرة من شيء في تاريخها الحديث، كاستفادتها من فكرة، اتحاد الدعوة الإصلاحية الدينية مع السلطة التنفيذية التي اهتدى إلى قيامها الإمامان الكريمان، وما بذلاه من جهود في سبيل نشر الدعوة، وتوسيع رقعة الدولة، فقاما برفع راية الجهاد على أولئك الذين قاوموا انتشار الدعوة، وأغمضوا عيونهم عن نور العلم، ورفضوا الانتظام في ركب الاتحاد الديني، والسياسي، تحت راية السلطة المركزية في الدرعية التي أصبح لديها جيش قوي استطاع أن يغزو أقصى جهات الجزيرة الأربع، حتى دانت لهم البوادي المستعصية، والحواضر المتأبية، ودخلوا في مسمى الدولة الواحدة، وانضموا إلى قواتها الضاربة، حتى قضت على السلبيات

السلوكية لأبناء البادية، وأجبرتهم على التخلي عن تلك العادات السيئة المرذولة، التي كانوا يمارسونها في حياتهم القبلية، فازدهرت التجارة المحلية بعد تأمين طرق القوافل، وانتشر العلم الشرعي واستتب الاستقرار، وعاش الناس حياتهم العادية، كل يمارس نشاطه في حقله، أهل المدن في تجارتهم، وأهل القرى في زراعتهم، وأبناء البادية في مراعيهم، وعلى ماشيتهم، ويعد وسط نجد من المناطق النائية بالنسبة للحكومات المجاورة في الشرق، والغرب، التي تحاول بسط نفوذها على تلك الأجزاء التي يتولى أمرها أمراء محليون، أو رؤساء عشائر، ولذلك أصبحت الإمارات المحلية الصغيرة في مأمن، أو في منأى عن نفوذ تلك السلطات المباشرة، فهي تتمتع بنوع من الاستقلال الذاتي، ولكن يظل الخلاف قائماً بين تلك الإمارات بسبب طمع بعضهم ببعض،

وخلاف البادية على المراعي، والمكاسب التي تسلبها من القوافل التجارية التي تقوم بنقل التجارة من جهة إلى جهة.

ثم هبت على المسلمين رياح أعجمية، وأحقاد أجنبية، فسلبت المعنويات، ودمرت الإنجازات، وهدمت ما شيد من القرى والمدن، وأحرقت المزارع ، وقطعت النخيل، وأكلت الماشية، حتى عادت بالبلاد إلى المجاعة، والفاقة، والتفرق بعد الاجتماع، وعادت إلى السلب والنهب وهتك الأعراض ، وهذه المعاني وتلك هي ما تناوله الكتاب الذي بين يديك، والذي أرجو أن يكون قد حاز رضا القارئ الكريم.

وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم ؛؛؛

المؤلف/ الدكتور عثمان بن صالح العلي العوينم

٥/١٠/١٤١٩هـ - ٢٢/١/١٩٩٩م

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع

اسم الكتاب	اسم المؤلف
- آل سعود	أحمد علي
- تاريخ الأحساء السياسي	محمد عرابي نخلة
- تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد	إبراهيم بن صالح بن عيسى
- تاريخ البلاد العربية السعودية المجلد الأول	د/منير العجلاني
- تاريخ بن عباد	محمد بن حمد عباد العوسجي
- تاريخ الجزيرة العربية	د. محمد حسن العيدروس
- تاريخ الدولة السعودية الأولى	د/ عبدالله الصالح العثيمين
- تاريخ الدولة السعودية	د. مديحة أحمد درويش
- تاريخ الشيخ أحمد المنقور	د. عبدالعزيز الخويطر
- تاريخ ملوك آل سعود	الأمير/ سعود بن هذلول
- تاريخ المملكة العربية السعودية	سيد محمد إبراهيم
- تاريخ نجد الحديث	أمين الريحاني
- تاريخ نجد	حسين بن غنام
- تاريخ نجد	عبدالله فلبي
- تحفة المشتاق من أخبار نجد والحجاز والطرق	عبدالله بن محمد البسام

- جمهرة أنساب الأسر المتحضرة في نجد	حمد الجاسر
- الحياة العلمية في نجد	مي عبدالعزيز العيسى
- الأخبار النجدية	محمد بن عمر الفاخري
- الدرعية العاصمة الأولى	الشيخ عبدالله بن خميس
- الدرعية قاعدة الدولة السعودية الأولى	محمد الفهد العيسى
- الدولة السعودية الأولى	عبدالرحيم عبدالرحيم
- الشيخ محمد بن عبدالوهاب حياته وفكره	د. عبدالله صالح العثيمين
- الرحلة الحجازية	محمد لبيب البتنوني
- العلاقات بين مصر والحجاز ونجد	د. سعد بدر الحلواني
- عنوان المجد في تاريخ نجد	عثمان بن بشر
- قلب جزيرة العرب	فؤاد حمزة
- مثير الوجد في أنساب ملوك نجد	راشد بن علي الحنبلي
- محاضرات وتعليقات في تاريخ المملكة	د. عبدالله الصالح العثيمين
- محاضرات في تاريخ الدولة السعودية الأولى	عبدالفتاح حسن أبو علية
- ملوك العرب	أمين الريحاني
- مواد لتاريخ الوهابيين	رحلة بوركهارت ترجمة د. عبدالله العثيمين

المحتويات

المحتويات

الموضوع	الصفحة
# المقدمة	٥ - ١٤
الحياة الإجتماعية والسياسية في شبه الجزيرة العربية	١٥-٣٠
- **القسم الأول:** نشر الدعوة وتوحيد أجزاء البلاد	
• مدخل	٣٣-٤٠
• آل سعود	٤٣-٤٨
• الشيخ محمد عبدالوهاب	٥١-٦٠
• بدء تاريخ الدولة السعودية في دورها الأول	٦٣-٦٦
• دهام بن دواس وملحمة الرياض	٦٩-٧٨
• ضم بلدان وسط نجد	٨١-٩٠
• ضم منطقة القصيم	٩٣-١٠٤
• ضم إقليم الخرج	١٠٧-١١٤
• ضم إقليم الأحساء	١١٧-١٣٨
• ضم الحجاز إلى الحكومة المركزية في الدرعية	١٤١-١٦٢
• أسباب نجاح قادة الدرعية في السيطرة على معظم شبه الجزيرة العربية وضمها إلى سلطتهم	١٦٥-١٧٠

- **القسم الثاني:**

- أسباب تكليف محمد علي بالحملة العثمانية على الدولة السعودية ١٧٣-١٨٠
- الفترة الحرجة في تاريخ الدولة السعودية الأولى أو النزع الأخير ١٨٣-١٨٦
- المرحلة الثانية من الحملة الأولى ١٨٩-٢١٠
- الحملة الثانية بقيادة إبراهيم باشا ٢١٣-٢٥٨
- كيف انتصر الغزاة ولماذا ؟ وماهي أهم العوامل التي أدت إلى نجاح الغزاة في الاستيلاء على الدرعية عاصمة الدعوة ؟ وإنهاء الحكم فيها ٢٦١-٢٨٨

الخاتمة ٢٨٩-٢٩٤

المصادر والمراجع ٢٩٧-٢٩٨

المحتويات ٣٠١-٣٠٢

المؤلف في سطور

- هو عثمان بن صالح العلي العثمان العبد الله الصوينع.
- ولد عام ١٣٥٩هـ في قرية المريدسية - إحدى ضواحي مدينة بريدة الجميلة.
- تعلم مبادئ القراءة والكتابة على يد والده صالح العلي الصوينع رحمه الله حيث كان والده يدرس أبناء القرية القرآن الكريم ومبادئ القراءة.
- عاد والده إلى أملاك آبائه وأجداده في مدينة بريدة عام ١٣٦٨ هـ.
- بدأ حياته العلمية على يد المشائخ في المساجد وكان أكثر تحصيلة على يد الشيخ/محمد الصالح المطوع رحمه الله . تعلم القرآن الكريم التوحيد والفرائض والحديث على يد هذا الشيخ الورع.
- التحق بالمعهد العلمي حين فتح في مدينة بريدة عام ١٣٧٣ هـ.
- حصل على شهادة المعهد العلمي السعودي بمكة المكرمة عام ١٣٨٢ هـ وعلى شهادة المعهد العلمي في بريدة عام ١٣٨٣ هـ بعد فترة انقطاع لظروف قاهرة.
- حصل على الشهادة الجامعية من كلية اللغة العربية بالرياض عام ١٣٨٨/٨٧ هـ.
- حصل على شهادة العليا - الماجستير - من جامعة الأزهر عام ١٣٩٠ هـ وكان موضوع الرسالة الوطنية والقومية في شعر شوقي.
- وفي عام ١٣٩١ هـ سافر إلى بريطانيا لدراسة اللغة الإنجليزية وعاد منها أن أمضى خمسة عشر شهراً هناك. وحصل على دبلوم في اللغة الإنجليزية.
- حصل على الشهادة العالمية (الدكتوراه) عام ١٤٠٣هـ بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف الأولى من جامعة الأزهر.
- شارك في تحرير جريدة القصيم أثناء صدورها وعمل مديراً لمكتبها في بريدة.
- له نشاط في ميدان الصحافة مستمر.
- عمل في مراقبة المواد التلفزيونية في تلفزيون الرياض متعاوناً
- له محاولات شعرية وخاصة شعر المناسبات.
- شغل عدة مناصب قيادية مساعدة في وزارة المالية ثم في إمارة القصيم ثم في البلديات ثم في وزارة المالية وكان آخر وظيفة شغلها مرتبة وكيل وزارة مساعد في المديرية العامة للمقررات والقواعد ثم تفرغ للتأليف والقراءة له عدة مؤلفات موضحة في الغلاف الخارجي.

عبدالله بن عبدالرحمن الباز